

الشيطان

في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب

عكاشة عبد المنان الطيبي

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

الشيطان

في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب

تأليف

عكاشة عبد المنّان الطيبي

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت ١٣٩٧/١٣٩١

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت ٣٩١١٣٩٧

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية - عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧ - ٣٩٢٥٦٧٧ - فاكس: ٣٩١٣٤٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..

وبعد :

إنّ هذا الكتاب الذي بين أيدينا من خيرة الكتب التي تناولت الشياطين وبيان شرورهم والتحذير منهم وكيفية التحرز منهم وهذا الكتاب من تحف الشهيد سيد قطب .

عملي في الكتاب :

١ - قمت باستقصاء كل ما كتبه الاستاذ سيد رحمه الله في الظلال عن الشيطان ومحاولاته الخبيثة في إضلال الناس عن الحق وبيان الخلاص من شره ..

٢ - بوبت مواضيع الكتاب لبيان ماتحمله هذه المادة من الحكم والعبر ..

٣ - خرجت الأحاديث التي ساقها الاستاذ سيد رحمه الله ليتبين صحتها القارىء ..

نبذة من حياة الشهيد سيد قطب رحمه الله :

هو سيد بن قطب بن إبراهيم ، ولد سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م وتوفي سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٦ م : مفكر إسلامي مصري ، من مواليد قرية «موشا» في أسيوط ، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م وعمل في جريدة الأهرام ، وكتب في مجلتي «الرسالة» و «الثقافة» وعين مدرساً للعربية ، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف ، ثم «مراقباً فنياً» للوزارة ، وأوفد في بعثة لدراسة «برامج التعليم» في أمريكا ١٩٤٨ - ١٩٥١ ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها

من وضع الإنجليز ، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية ، وبنى على هذا استقالته ١٩٥٣ في العام الثاني للثورة ، وانضم إلى الإخوان المسلمين ، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم ١٩٥٣ - ١٩٥٤ وسجن معهم ، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو فى سجنه ، إلى أن صدر الأمر بإعدامه ، فأُعدم ، قال خالد محيي الدين - أحد أقطاب الثورة المصرية - فيما كتب عنه : كان سيد قطب قبل الثورة من أكثر المفكرين الإسلاميين وضوحاً ، ومن العجيب أنه انقلب - بعد قيام الثورة - ناقماً متمرداً على كل مايحدث حوله ، لا يراه إلّا جاهلية مظلمة . وكتبه كثيرة مطبوعة متداولة ، منها : «النقد الأدبي أصوله ومنهاجه» و «العدالة الاجتماعية في الإسلام» و «التصوير الفني في القرآن» و «مشاهد القيامة في القرآن» و «كتب وشخصيات» و «أشواك» و «الإسلام ومشكلات الحضارة» و «السلام العالمي والإسلام» و «المستقبل لهذا الدين» و «في ظلال القرآن» و «معالم في الطريق» ..

ولما وصل خبر استشهادة إلى المغرب أُقيمت على روحه صلاة الغائب وأصدر أبو بكر القادري عدداً خاصاً به من مجلة «الإيمان». ولما كانت النكسة - أو النكبة - عام ١٩٦٧ م قال علّال الفاسي : ماكان الله لينصر حربا يقودها قاتل سيد قطب ..

وكتب إبراهيم بن عبد الرحمن البليهي - من طلاب كلية الشريعة في الرياض - مجلداً سماه : «سيد قطب وتراثه الأدبي والفكري»

رحم الله الشهيد وأسكنه فسيح جناته وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عكاشة عبد المنان الطيبي

المعركة الأولى مع إبليس

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات ، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة ، والحلقة التي تعرض منها ، والصورة التي تأتي عليها ، والطريقة التي تؤدي بها . تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه . وبذلك تؤدي دورها الموضوعي ، وتحقق غايتها النفسية ، وتلقي إيقاعها المطلوب .

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني ، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى ، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه مامن قصة ، أو حلقة من قصة قد تكررت في سورة واحدة ، من ناحية القدر الذي يساق ، وطريقة الأداء في السياق ، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ، ينفي حقيقة التكرار .

ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها ، يقصد به إلى مجرد الفن - بمعنى التزويق الذي لا يتقيد بواقع - ولكن الحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن ، وهو مستقيم الفطرة ، مفتوح البصيرة ، هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع ، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء ، والقرآن كتاب دعوة ، ودستور نظام ، ومنهج حياة ، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ . وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار ، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق ، وتحقق الجمال الفني الصادق ، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق ، ولكن يعتمد على إبداع العرض ، وقوة الحق ، وجمال الأداء .

فلننظر الآن في قصة آدم في ضوء هذه الإيضاحات ...

قال تعالى : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم**

أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون * وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم مني هدًى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

[البقرة : ٣٠ ـــ ٣٨] .

إن السياق يستعرض موكبْ الحياة ، بل موكب الوجود كله ، ثم يتحدث عن الأرض فيقرر أن الله خلق كل مافيها لهم .. فهنا في هذا الجو تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض ، ومنحه مقاليدها ، على عهد من الله وشرط ، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة .. فلنعش لحظات مع قصة البشرية الأولى وماوراءها من إيحاءات أصيلة :

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ..﴾ ..

وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود ، زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ، وكشف مافي هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، وتسخير هذا كله بإذن الله في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه ....

وإذن فهي منزلة عظيمة ، منزلة هذا الإنسان ، في نظام الوحود على هذه الأرض الفسيحة ، وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم .

هذا كله بعض إيحاء التعبير العلوي الجليل : **﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾** .. حين نتملاه اليوم بالحس اليقظ والبصيرة المفتوحة ، ورؤية ماتم في الأرض على يد هذا الكائن المستخلف في هذا الملك العريض !

﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟﴾ ..

ويوحي قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال ، أو من تجارب سابقة في الأرض ، أو من إلهام البصيرة ، مايكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته على الأرض ، ومايجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض ، وأنه سيسفك الدماء .. ثم هم - بفطرة الملائكة البريئة التي لا تتصور إلا الخير المطلق ، وإلا السلام الشامل - يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له ، هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو وحده العلة الأولى للخلق .. وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدسون له ، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته !

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا ، في بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفي تنمية الحياة وتنويعها ، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها ، على يد خليفة الله في أرضه . هذا الذي قد يفسد أحياناً ، وقد يسفك الدماء أحياناً ، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل ، خير النمو الدائم ، والرقي الدائم ، خير الحركة الهادمة البانية ، خير المحاولة التي لا تكف ، والتطلع الذي لا يقف ، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير .

عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء ، والخبير بمصائر الأمور : ﴿**قال : إني أعلم مالا تعلمون**﴾ ..

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين* قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم* قال : ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون﴾ ..

هانحن أولاء نشهد ماشهده الملائكة في الملأ الأعلى .. هانحن أولاء نشهد طرفاً من ذلك السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري ، وهو يسلمه مقاليد الخلافة ، سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات ، سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها - وهي ألفاظ منطوقة - رموزاً لتلك الأشخاص ، والأشياء المحسوسة ، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض ، ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة

الكبرى ، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات ، والمشقة فى التفاهم والتعامل ، حين يحتاج كل فرد لكى يتفاهم مع الآخرين على شىء أن يستحضر هذا الشىء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه .. الشأن شأن نخلة فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا باستحضار جسم النخلة ! الشأن شأن جبل ، فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلّا الذهاب إلى الجبل.! الشأن شأن فرد من الناس فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بتحضير هذا الفرد من الناس .. إنها مشقة هائلة لا تتصور معها حياة ! وإن الحياة ماكانت تمضى فى طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات .

فأما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية ، لأنها لا ضرورة لها فى وظيفتهم ، ومن ثم لم توهب لهم ، فلما علم الله آدم هذا السر ، وعرض عليهم ماعرض لم يعرفوا الأسماء ، لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص .. وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم ، والاعتراف بعجزهم ، والإقرار بحدود علمهم ، وهو ماعلمهم .. وعرف آدم .. ثم كان هذا التعقيب الذى يردهم إلى إدراك حكمة العليم الحكيم : ﴿ **قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون** ﴾ .. ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ...** ﴾ ..

إنه التكريم فى أعلى صوره ، لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وهب من الأسرار مايرفعه على الملائكة ، لقد وهب سر المعرفة ، كما وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق .. إن ازدواج طبيعته ، وقدرته على تحكيم إرادته فى شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة .. إن هذا كله بعض أسرار تكريمه .

ولقد سجد الملائكة امتثالًا للأمر العلوى الجليل .. ﴿ **إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ ..

وهنا تتبدى خليقة الشر مجسمة : عصيان الجليل سبحانه ! والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله ، والعزة بالإثم ، والاستغلاق عن الفهم .

ويوحى السياق أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ، إنما كان معهم ، فلو كان منهم ماعصى ، وصفتهم الأولى أنهم ﴿ **لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون** ﴾ ..

والآن : لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة ، المعركة بين خليقة الشر فى إبليس ، وخليفة الله فى الأرض . المعركة الخالدة فى ضمير الإنسان ، المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار مايستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه ، وينتصر فيها الشر بمقدار مايستسلم الإنسان لشهوته ، ويبعد عن ربه : **﴿وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾** ..

لقد أبيحت لهما كل ثمار الجنة .. إلا شجرة .. شجرة واحدة ، ربما كانت ترمز للمحظور الذى لابد منه فى حياة الأرض ، فبغير محظور لا تنبت الإرادة ، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق ، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط ، فالإرادة هى مفرق الطريق ، والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة ، ولو بدوا فى شكل الآدميين !

﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ ..

ويالتعبير المصور : «أزلهما» .. إنه لفظ يرسم صورة الحركة التى يعبر عنها ، وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى !

عندئذ تمت التجربة : نسى آدم عهده ، وضعف أمام الغواية ، وعندئذ حقت كلمة الله ، وصرح قضاؤه : **﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾** ...

وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة فى مجالها المقدر لها بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان .

ونهض آدم من عثرته ، بما ركب فى فطرته ، وأدركته رحمة ربه التى تدركه دائماً عندما يثوب إليها ، ويلوذ بها .

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ ..

وتمت كلمة الله الأخيرة ، وعهده الدائم مع آدم وذريته ، عهد الاستخلاف فى هذه الأرض ، وشرط الفلاح فيها أو البوار .

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدىً فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ...

وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل ، وانطلقت من عقالها ماتهدأ لحظة وماتفتر ، وعرف الإنسان فى فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار ، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار ...

وبعد : فلابد من عودة إلى مطالع القصة .. قصة البشرية الأولى ...

لقد قال الله تعالى للملائكة : **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾** .. وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ، ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض ، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟

لعلنى ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً ، كانت إيقاظاً للقوى المذخورة فى كيانه ، كانت تدريباً له على تلقى الغواية ، وتذوق العاقبة ، وتجرد الندامة ، ومعرفة العدو ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين .

إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة من بعد السكرة ، والندم وطلب المغفرة .. إنها هى تجربة المتجددة المكرورة !

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته ، مزوداً بهذه التجربة التى سيتعرض لمثلها طويلًا ، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً ..

وبعد .. مرة أخرى .. فأين كان هذا الذى كان ؟ وماالجنة التى عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمان ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟ كيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟...

هذا وأمثاله فى القرآن الكريم غيب من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر فى معرفة كنهه وطبيعته ، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به ، بالأداة التى وهبهم إياها لخلافة الأرض ، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب ، وبقدر ماسخر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرّفه بأسرارها ،

بقدر ماحجب عنه أسرار الغيب ، فيما لا جدوى له فى معرفته ، ومايزال الإنسان مثلًا على الرغم من كل مافتح له من الأسرار الكونية يجهل ماوراء اللحظة الحاضرة جهلًا مطلقاً ، ولا يملك بأى أداة من أدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة ، وهل النفس الذى خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه ؟ وهذا مثل من الغيب المحجوب عن البشر ، لأنه لا يدخل فى مقتضيات الخلافة ، بل ربما كان معوِّقاً لها لو كشف للإنسان عنه ! وهنالك ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الإنسان ، فى طى الغيب الذى لا يعلمه إلّا الله .

ومن ثم لم يعد للعقل البشرى أن يخوض فيه ، لأنه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شىء من أمره ، وكل جهد يبذل فى هذه المحاولة هو جهد ضائع ، ذاهب سدى ، بلا ثمرة ولا جدوى ..

فلندع هذا الغيب إذن لصاحبه ، وحسبنا مايقص لنا عنه ، بالقدر الذى يصلح لنا فى حياتنا ، ويصلح سرائرنا ومعاشنا ، ولنأخذ من القصة ماتشير إليه من حقائق كونية وإنسانية ، ومن تصور للوجود وارتباطاته ، ومن إيحاء بطبيعة الإنسان وقيمه وموازينه .. فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى .

أبرز إيحاءات قصة آدم مع إبليس

إن أبرز إيحاءات قصة آدم - كما وردت فى هذا الموضع - هو القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى للإنسان ولدوره فى الأرض ، ولمكانه فى نظام الوجود ، وللقيم التى يوزن بها ، ثم لحقيقة ارتباطه بعهد الله ، وحقيقة هذا العهد الذى قامت خلافته على أساسه ..

وتتبدى تلك القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى للإنسان فى الإعلان العلوى الجليل فى الملأ الأعلى الكريم ، أنه مخلوق ليكون خليفة فى الأرض ، كما تتبدى فى أمر الملائكة بالسجود له ، وفى طرد إبليس الذى استكبر وأبى ، وفى رعاية الله له أولًا وأخيراً ..

ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة فى عالم التصور وفى عالم الواقع على السواء .

وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أن الإنسان سيد هذه الأرض ، ومن أجله خلق كل شيء فيها - كما تقدم ذلك نصاً - فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادى ، ومن كل قيمة مادية فى هذه الأرض جميعاً ، ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادى .. لا يجوز أن يعتدى على أى مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة ، ولا أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أى كسب مادى ، أو إنتاج أى شيء مادى ، أو تكثير أى عنصر مادى .. فهذه الماديات كلها مخلوقة - أو مصنوعة - من أجله ، من أجل تحقيق إنسانيته ، من أجل تقرير وجوده الإنسانى ، فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية ، أو نقص مقوم من مقومات كرامته .

والاعتبار الثانى : هو أن دور الإنسان فى الأرض هو الدور الأول ، فهو الذى يغير ويبدل فى أشكالها وفى ارتباطاتها ، وهو الذى يقود اتجاهاتها ورحلاتها ، وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج ، هى التى تقود الإنسان وراءها ذليلًا سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التى تحقر من دور الإنسان وتصغر ، بقدر ماتعظم فى دور الآلة وتكبر !

إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته فى الأرض ، عاملًا مهماً فى نظام الكون ، ملحوظاً فى هذا النظام ، فخلافته فى الأرض تتعلق بارتباطات شتى مع السماوات ومع

الرياح ومع الأمطار ، ومع الشموس والكواكب .. وكلها ملحوظ فى تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض ، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة .. فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الذى تخصصه له المذاهب المادية ، ولا تسمح له أن يتعداه ؟

وفى التصور الإسلامى إعلاء من شأن الإرادة فى الإنسان فهى مناط العهد مع الله ، وهى مناط التكليف والجزاء .. إنه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته ، وعدم الخضوع لشهواته ، والاستعلاء على الغواية التى توجه إليه ، بينما يملك أن يشقى نفسه ويهبط من عليائه ، بتغليب الشهوة على الإرادة ، والغواية على الهداية ، ونسيان العهد الذى يرفعه إلى مولاه ، وفى هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك فيه ، يضاف إلى عناصر التكريم الأخرى . كما أن فيه تذكيراً دائماً بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة ، والرفعة والهبوط ، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق !

وفى أحداث المعركة التى تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة ، إنها بين عهد الله وغواية الشيطان ، بين الإيمان والكفر ، بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال .. والإنسان هو نفسه ميدان المعركة ، وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها ، وفى هذا إيحاء دائم له باليقظة ، وتوجيه دائم له بأنه جندى فى ميدان ، وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب فى هذا الميدان !

وأخيراً تجىء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة .. إن الخطيئة فردية والتوبة فردية ، فى تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض .. ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده – كما تقول نظرية الكنيسة – وليس هنالك تكفير لاهوتى ، كالذى تقول الكنيسة إن عيسى – عليه السلام – (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه ، تخليصاً لبنى آدم من خطيئة آدم ! كلا ! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية ، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة فى يسر وبساطة . وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية ، والطريق مفتوح للتوبة فى يسر وبساطة .. تصور مريح صريح ، يحمل كل إنسان وزره ، ويوحى إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط .. إن الله تواب رحيم .

هذا طرف من إيحاءات قصة آدم فى هذا الموضع ....

المعـــركة الثـــانية مـع إبليـــس

من هنا تبدأ الرحلة الكبرى .. تبدأ بتمهيد عن تمكين الله للجنس البشرى فى الأرض ، كحقيقة مطلقة ، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلًا .

﴿ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلًا ماتشكرون﴾ ..

إن خالق الأرض وخالق الناس ، هو الذى مكن لهذا الجنس البشرى فى الأرض ، هو الذى أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التى تسمح بحياة هذا الجنس وتقوته وتعوله ، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش ..

هو الذى جعلها مقراً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر ، ودورتها حول الشمس ، وميلها على محورها ، وسرعة دورتها .. إلى آخر هذه الموافقات التى تسمح بحياة هذا الجنس عليها ، وهو الذى أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات مايسمح بنشأة هذا الجنس وحياته ، وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً .. وهو الذى جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض ، قادراً على تطويعها واستخدامها ، بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها فى حاجته ...

بعد ذلك تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة .. تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان فى احتفال مهيب ، فى رحاب الملأ الأعلى .. يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم ، زيادة فى الحفاوة والتكريم ، وتحتشد له الملائكة – وفى زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس – وتشهده السماوات والأرض ، وماخلق الله من شىء .. إنه أمر هائل وحدث عظيم فى تاريخ هذا الوجود : **﴿ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلّا إبليس لم يكن من الساجدين﴾** ..[الأعراف : ١١] .

إن الخلق قد يكون معناه : الإنشاء ، والتصوير قد يكون معناه : إعطاء الصورة والخصائص .. وهما مرتبتان فى النشأة لا مرحلتان .. فإن «ثم» قد لا تكون للترتيب الزمنى ، ولكن للترقى المعنوى ، والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود . فالوجود يكون

للمادة الخامة ، ولكن التصوير – بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص – **يكون** درجة أرقى من درجات الوجود ، فكأنه قال : إننا لم نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية ، وذلك كقوله تعالى : **﴿الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾** ..

على أية حال لقد أعلن الله بذاته العلية الجليلة ميلاد هذا الكائن الإنسانى ، فى حفل حافل من الملأ الأعلى : **﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس لم يكن من الساجدين﴾** ..

والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم ، لا نعلم عنهم إلّا ماأنبأنا الله من أمرهم .. وقد جعل الإسلام الإيمان بها مقوماً من مقومات الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا به .. «**الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**» (١) ..

لقد تضمن التصور الإسلامى عن عالم الغيب ، أن هناك خلقاً من عباد الله اسمهم الملائكة ، وأخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم ، يكفى لهذا التصور ، ويكفى للتعامل معهم فى حدوده .

فهم خلق من خلق الله ، يدين لله بالعبودية ، وبالطاعة المطلقة ، وهم قريبون من الله – لا ندرى كيف ولا ندرى نوع القرب على وجه التحديد : **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾** ..
﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ ..

---

(١) – أخرجه الإمام أحمد ١/ ٢٨ ، ومسلم (الإيمان) ٥ ، والنسائى ٨/ ٩٨ ، و «الإتحاف» ٢/ ٢٣٦ و ٢٧٩ ، و «الترغيب» ٢/ ١٦٥ ، والربيع بن حبيب ٣/ ٥٠ ، و «التمهيد» ٩/ ٢٣٩ ، وابن أبى عاصم ١/ ٥٥ و ٧٥ ، و «مشكل الآثار» ٤/ ١٢٢ و ٥/ ١٠٨ ، و «الدر المنثور» ١/ ١٧٠ ، والآجرى فى «الشريعة» (١٠٧) و (١٨٩) ، و «موارد الظمآن» (١٦) .

وهم يحملون عرش الرحمن ، ويحفون به يوم القيامة كذلك – لا ندرى كيف فليس لنا من علم إلّا بقدر ماكشف الله لنا من هذا الغيب – : ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ..**﴾ ﴿**وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ ..

وهم خزنة الجنة وخزنة النار ، يستقبلون أهل الجنة بالسلام والدعاء ، ويستقبلون أهل النار بالتأنيب والوعيد : ﴿**وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ .. ﴿**وماجعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة ..**﴾
وهم يتعاملون مع أهل الأرض فى صور شتى :

فهم يقومون عليهم حفظة بأمر الله ، يتابعونهم ويسجلون عليهم كل مايصدر عنهم ، ويتوفونهم إذا جاء أجلهم : ﴿**وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون**﴾ ..
﴿**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه .. من أمر الله ..**﴾
﴿ **مايلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد** ﴾ .

وهم يبلغون الوحى إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .. وقد أعلمنا الله سبحانه أن جبريل عليه السلام هو الذى يقوم منهم بهذه الوظيفة : ﴿**يُنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلّا أنا فاتقون**﴾ ..

ووصفه سبحانه بأنه ذو مرة – أى قوة – وأن رسول الله ﷺ رآه على هيئته الملائكية مرتين اثنتين ، بينما جاءه فى صور شتى فى مرات الوحى التالية ...

وهم يتنزلون على المؤمنين بالتثبيت والمدد والتأييد فى معركتهم الكبرى مع الباطل : ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا**

بالجنة التى كنتم توعدون﴾ ..
﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ...﴾ ..
﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ ..

وهم مشغولون بأمر المؤمنين ، يسبحون ربهم ، ويستغفرون للذين آمنوا من ذنوبهم ، ويدعون ربهم لهم دعاء المحب المشفق المشغول بشأن من يحب : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك الفوز العظيم﴾ .

وهم كذلك يبشرون المؤمنين بالجنة عند قبض أرواحهم ، ويستقبلونهم بالبشرى فى الآخرة ويسلمون عليهم فى الجنة : ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ ..
﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ..

وهم يستقبلون الكافرين فى جهنم بالتأنيب والوعيد – كما سبق – ويقاتلونهم فى معارك الحق كذلك . وكذلك هم يستلون أرواحهم فى تعذيب وتأنيب ومهانة :
﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ ...
﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ ..

ولقد كان لهم شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم ، كما أن هذه الصلة امتدت فى طول

الحياة وعرضها حتى مجال الحياة الباقية على النحو الذى أشرنا إليه ....

وكذلك إبليس فهو خلق غير الملائكة ، لقوله تعالى : **﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ...﴾** ..

والجن خلق غير الملائكة ، لا نعلم عنه كذلك إلّا ماأنبأنا الله من أمره ، وبحكم مايكسبون من الشر والإثم تتفق مصائرهم فى الآخرة ... **﴿يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾** ...

وهو سؤال للتقرير والتسجيل ، فالله سبحانه يعلم ماكان من أمرهم فى الحياة الدنيا ، والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء فى الآخرة .

والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس .. فهل أرسل الله إلى الجن رسلاً منهم كما أرسل إلى الإنس ؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر ...

وقد خلق إبليس من النار ، فهو من غير الملائكة قطعاً ، وإن كان قد أمر بالسجود لآدم فى زمرة الملائكة ، فى ذلك الحفل العظيم الذى أعلن فيه الملك الجليل ميلاد هذا الكائن الفريد ...

فأما الملائكة – وهم الذين لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون – فقد سجدوا مطيعين منفذين لأمر الله ، لا يترددون ولا يستكبرون ولا يفكرون فى معصية لأى سبب ولأى تصور ولأى تفكير .. هذه طبيعتهم ، وهذه خصائصهم : وهذه وظيفتهم .. وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنسانى على الله ، كما تتمثل الطاعة المطلقة فى ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله .

وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله سبحانه وعصاه ، وسنعلم ماالذى حاك فى صدره ، وماالتصور الذى سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه ، وهو يعرف أنه ربه وخالقه ، ومالك أمره وأمر الوجود كله ، لا يشك فى شيءمن هذا كله !

وكذلك نجد فى المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله : نموذج الطاعة المطلقة والتسليم

العميق .. ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت .. وطبيعة ثالثة هى الطبيعة البشرية . وسنعلم خصائصها وصفاتها المزدوجة فيما سيجىء .

فأما الطبيعة الأولى : فهى خالصة لله ، وقد انتهى دورها فى هذا الموقف بهذا التسليم المطلق .. وأما الطبيعتان الأخريان ، فسنعرف كيف تتجهان .

﴿قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ ..

لقد جعل إبليس له رأياً مع النص ، وجعل لنفسه حقاً فى أن يحكم نفسه وفق مايرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر .. وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ، ويبطل التفكر ، وتتعين الطاعة ، ويتحتم التنفيذ .. وهذا إبليس – لعنه الله – لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذى لا يقع فى هذا الوجود شىء إلا بإذنه وقدره .. ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه .. بمنطق من عند نفسه : **﴿قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾** ...

فكان الجزاء العاجل الذى تلقاه لتوه : **﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾** ...

إن علمه بالله لم ينفعه ، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه .. وكذلك كل من يتلقى أمر الله ، ثم يجعل لنفسه نظراً فى هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه ، وحاكمية فى قضية قضى الله فيها من قبل ، يرد بها قضاء الله فى هذه القضية .. إنه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد ، فإبليس لم يكن ينقصه العلم ، ولم يكن ينقصه الاعتقاد !

لقد طرد من الجنة ، وطرد من رحمة الله ، وحقت عليه اللعنة ، وكتب عليه الصغار .

ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ، ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم ، ثم ليؤدى وظيفته وفق طبيعة الشر التى تمحضت فيه :

﴿قال أنظرنى إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ ...

فهو الإصرار المطلق على الشر ، والتصميم المطلق على الغواية .. وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى .. شر ليس عارضاً ولا وقتياً ، إنما هو الشر الأصيل العامد القاصد العنيد ...

ثم هو التصوير المشخص للمعانى العقلية والحركات النفسية ، فى مشاهد شاخصة حية :

لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث ، وهو يعلم أن هذا الذى يطلبه لا يقع إلّا بإرادة الله وقدره . ولقد أجابه الله إلى طلبه فى الإنظار ، ولكن إلى يوم الوقت المعلوم ...

وهنا يعلن إبليس فى تبجح خبيث – وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل – أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به ، بسبب معصيته وتبجحه ، بأن يغوى ذلك المخلوق الذى كرمه الله ، والذى بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده ! ويجسم هذا الإغواء بقوله الذى حكاه القرآن عنه : ﴿.. **لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم**﴾ ...

إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه . والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حساً ، فالله سبحانه جل عن التحيز ، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدى إلى رضى الله . وإنه سيأتى البشر من كل جهة : ﴿**من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم**﴾ .. للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة .. وهو مشهد حى شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر فى محاولته الدائبة لإغوائهم ، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه ، اللهم إلا القليل الذى يفلت ويستجيب :
﴿**ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾ ...

ويجىء ذكر الشكر ، تنسيقاً مع ماسبق فى مطلع السورة : ﴿**قليلًا ماتشكرون**﴾ .. لبيان السبب فى قلة الشكر ، وكشف الدافع الحقيقى الخفى ، من حيلولة إبليس دونه ، وقعوده على الطريق إليه ، ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذى يدفعهم عن الهدى ، وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة . التى لا تجعل أكثرهم شاكرين !

لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه . لأن مشيئة الله سبحانه اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه ، بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر ، وبما وهبه من عقل مرجح ، وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدى الرسل ، ومن الضبط والتقويم بهذا الدين ، كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ، وأن يصطرع فى كيانه الخير والشر ، وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سنة الله وتتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أو ضل ، فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة ، تحقق الهدى أو الضلال .

ولكن السياق هنا لا يصرح بترخيص الله سبحانه لإبليس عليه اللعنة فى إبعاده هذا الأخير ، كما صرح بإجابته فى إنظاره ، إنما يسكت عنه ، ويعلن طرد إبليس طرداً لا معقب عليه ، طرده مذموماً مقهوراً ، وإبعاده بملء جهنم منه وممن يتبعه من البشر ويضل معه : **﴿قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾** ..

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه فى معرفته بالله واعتقاده بألوهيته ، ثم فى رفض حاكمية الله وقضائه ، وادعاء أن له الحق فى إعادة النظر فى أوامر الله ، وفى تحكيم منطقه هو فى تنفيذها أو عدم تنفيذها .. كما أنه قد يتبعه ليضله عن الاهتداء إلى الله أصلاً .. وهذا وذاك كلاهما اتباع للشيطان ، جزاؤه جهنم مع الشيطان !

لقد جعل الله سبحانه لإبليس وقبيله فرصة الإغواء ، وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء ، الذى قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن ، وتجعله به خلقاً متفرداً فى خصائصه ، لا هو ملك ولا هو شيطان ، لأن له دوراً آخر فى هذا الكون ، ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان .

وينتهى هذا المشهد ، ليتلوه مشهد آخر فى السياق :

ينظر الله سبحانه بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة إلى آدم وزوجه .. وهنا فقط نعرف أن له زوجاً من جنسه ، لا ندرى كيف جاءت . فالنص الذى معنا وأمثاله فى القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشىء ، وكل الروايات التى جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد عليها ، والذى يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه ، فصارا زوجين اثنين ، والسنة التى نعلمها عن كل خلق الله

هى الزوجية : ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ .. فهى سنة جارية وهى قاعدة فى كل خلق الله أصيلة . وإذا سرنا مع هذه السنة فإن لنا أن نرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلًا بعد خلق آدم ، وأنه تم على نفس الطريقة التى تم بها خلق آدم ..

على أية حال يتجه الخطاب إلى آدم وزوجه ، ليعهد إليهما ربهما بأمره فى حياتهما ، ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسى ، الذى خلق الله له هذا الكائن ، وهو دور الخلافة فى الأرض كما صرح بذلك فى آية البقرة ... ﴿ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ .. [الأعراف : ١٩] .

ويسكت القرآن عن تحديد هذه الشجرة ، لأن تحديد جنسها لا يزيد شيئاً فى حكمة حظرها ، مما يرجح أن الحظر فى ذاته هو المقصود .. لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور ، ولابد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ، وأن يدرب المركوز فى طبعه من الإرادة التى يضبط بها رغباته وشهواته ، ويستعلى بها على هذه الرغبات والشهوات ، فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان ، فهذه هى خاصة الإنسان التى يفترق بها عن الحيوان ، ويتحقق بها فيه معنى الإنسان .

والآن يبدأ إبليس يؤدى دوره الذى تمحض له ..

إن هذا الكائن المتفرد ، الذى كرمه الله كل هذا التكريم ، والذى أعلن ميلاده فى الملأ الأعلى فى ذلك الحفل المهيب ، والذى أسجد له الملائكة فسجدوا والذى أخرج بسببه إبليس من الجنة وطرده من الملأ الأعلى .. إن هذا الكائن مزدوج الطبيعة ، مستعد للاتجاهين على السواء ، وفيه نقط ضعف معينة يقاد منها – مالم يلتزم بأمر الله فيها – ومن هذه النقط تمكن إصابته ، ويمكن الدخول إليه .. إن له شهوات معينة .. ومن شهواته يمكن أن يقاد !

وراح إبليس يداعب هذه الشهوات : ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾ .. [الأعراف : ٢٠ – ٢١] .

وهكذا وسوس لهما الشيطان ليبدى لها ماوورى عنهما من سوآتهما فهذا كان هدفه .. لقد كانت لهما سوآت ، ولكنها كانت مواراة عنهما لايريانها وسنعلم من السياق أنها

سوآت حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية ، فكأنها عوراتهما ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال ، إنما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة : ﴿**وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾ ..

بذلك داعب رغائب الإنسان الكامنة .. إنه يحب أن يكون خالداً لا يموت أو معمراً أجلًا طويلًا كالخلود ، ويحب أن يكون له ملك غير محدد بالعُمر القصير المحدد ..

وفى قراءة : « ملِكين » بكسر اللام . وهذه القراءة يعضدها النص الآخر فى سورة طه : ﴿**هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾ .. وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد وهما أقوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يقال : إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هى إلّا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد فى النسل جيلًا بعد جيل ..

وعلى قراءة « ملَكين » بفتح اللام . يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود .. ولكن القراءة الأولى – وإن لم تكن هى المشهورة – أكثر اتفاقاً مع النص القرآنى الآخر ، ومع اتجاه الكيد الشيطانى وفق شهوات الإنسان الأصيلة .

ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة ، وأن هذا النهى له ثقله فى نفوسهما وقوته ، فقد استعان على زعزعته – إلى جانب مداعبة شهواتهما – بتأمينهما من هذه الناحية ، فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح ، وفى نصحه صادق : ﴿**وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين**﴾ .. [الأعراف : ٢١]

ونسى آدم وزوجه – تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدر – أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلهما على خير ! وأن الله أمرهما أمراً ، عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها ! وأنه لا يكون شيء إلّا بقدر من الله ، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذى لا يبلى فلن ينالاه ! نسيا هذا كله ، واندفعا يستجيبان للإغراء !

﴿**فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين**﴾ .. [الأعراف : ٢٢] .

لقد تمت الخدعة وآتت ثمرتها المرة ، لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته ... فأنزلهما إلى مرتبة دنيا : ﴿**فدلاهما بغرور**﴾ ..

ولقد شعرا الآن أن لهما سوآت ، تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما . فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بعضه فى بعض ويضعان هذا الورق المشبك على سوآتهما مما يوحى بأنها العورات الجسدية التى يخجل الإنسان فطرة من تعريها ، ولا يتعرى ويتكشف إلا بفساد فى هذه الفطرة من صنع الجاهلية !

﴿**وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين**﴾ ؟.. [الأعراف : ٢٢] .

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وعلى إغفال النصيحة .. أما كيف كان النداء وكيف سمعاه ، فهو كما خاطبهما أول مرة ، وكما خاطب الملائكة ، وكما خاطب إبليس ، كلها غيب لا ندرى عنه إلّا أنه وقع ، وأن الله يفعل مايشاء .

وأمام النداء العلوى يتكشف الجانب الآخر فى طبيعة هذا الكائن المتفرد .. إنه ينسى ويخطىء ، إن فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان ، إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً .. ولكنه يدرك خطأه ، ويعرف زلته ، ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة .. إنه يثوب ويتوب ، ولا يلح كالشيطان فى المعصية ، ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية !

﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾ .

[الأعراف : ٢٣] .

إنها خصيصة الإنسان التى تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه .. الاعتراف ، والندم ، والاستغفار ، والشعور بالضعف ، والاستعانة به ، وطلب رحمته ، مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلّا بعون الله ورحمته .. وإلا كان من الخاسرين ..

وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت ، وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى ، وعرفها هو وذاقها ، واستعد – بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة – لمزاولة اختصاصه فى الخلافة ، وللدخول فى المعركة التى لا تهدأ أبداً مع عدوه ..

﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ . [الأعراف : ٢٤ – ٢٥] .

وهبطوا جميعاً .. هبطوا إلى هذه الأرض .. ولكن أين كانوا ؟ أين هى الجنة ؟.. هذا من الغيب الذى ليس عندنا من نبأ عنه إلا ماأخبرنا به من عنده مفاتح الغيب وحده .. وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحى هى محاولة فاشلة . وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم وعلمهم الظنى هو تبجح . فهذا العلم يتجاوز مجاله حين يحاول الخوض فى هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة ، ويتبجح حين ينفى الغيب كله ، والغيب محيط به فى كل جانب ، والمجهول فى المادة التى هى مجاله أكثر كثيراً من المعلومات !

لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض .. آدم وزوجه ، وإبليس وقبيله ، هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً ، وليعادى بعضهم بعضاً ، ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين : إحداهما ممحضة للشر ، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر وليتم الابتلاء ، ويجرى قدر الله بما شاء .

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا فى الأرض ، ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بما فيها إلى حين ، وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ، ثم يخرجوا منها فيبعثوا .. ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره ، فى نهاية الرحلة الكبرى ..

وانتهت الجولة الأولى لتتبعها جولات وجولات ، ينتصر فيها الإنسان ماعاذ بربه ، وينهزم فيها ماتولى عدوه ...

المعـــركة الثـــالثة بيـــن آدم وإبليــــس

قال تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلّا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتنى لأزين لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط على مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم * إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلامٍ آمنين﴾ .. [الحجر : ٢٦ – ٤٦] .

هنا نجىء إلى قصة البشرية الكبرى : قصة الفطرة الأولى ، قصة الهدى والضلال وعواملهما الأصيلة ، قصة آدم ، مم خلق ؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه ؟

ولقد مرت بنا هذه القصة فى الظلال معروضة مرتين من قبل ، فى سورة البقرة ، وفى سورة الأعراف ، ولكن مساقها فى كل مرة كان لأداء غرض خاص ، فى معرض خاص ، فى جو خاص ، ومن ثم اختلفت الحلقات التى تعرض منها فى كل موضع ، واختلفت طريقة الأداء ، واختلفت الظلال ، واختلف الإيقاع ، مع المشاركة فى بعض المقدمات والتعقيبات بقدر الاشتراك فى الأهداف .

تشابهت مقدمات القصة فى السور الثلاث ، فى الإشارة إلى التمكين للإنسان فى الأرض وإلى استخلافه فيها :

ففى سورة البقرة سبقها فى السياق : ﴿هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم﴾ ..

وفى سورة الأعراف سبقها : ﴿**ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلًا ماتشكرون**﴾ ...

وهنا سبقها : ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين**﴾ ..

ولكن السياق الذى وردت فيه القصة فى كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض ..

فى البقرة كانت نقطة التركيز فى السياق هى استخلاف آدم فى الأرض التى خلق الله للناس مافيها جميعاً : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ .. ومن ثم عرض من القصة أسرار هذا الاستخلاف الذى عجبت له الملائكة لما خفى عليهم سره : ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون ؟**﴾ .. ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره .. وسكنى ادم وزوجه الجنة ، وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها ، ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها ، بعد تزويدهما بهذه التجربة القاسية ، واستغفارهما وتوبة الله عليهما .. وعقب على القصة بدعوة بنى إسرائيل لذكر نعمة الله عليهم والوفاء بعهده معهم ، فكان هذا متصلًا باستخلاف أبيهم الأكبر فى الأرض ، وعهده معه ، والتجربة القاسية لأبى البشر ..

وفى الأعراف كانت نقطة التركيز فى السياق هى الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ، وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها ، حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى ، ففريق منهم يعودون إلى الجنة التى أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه ، وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود .. ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره ، وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث ، ليغوى أبناء آدم الذى من أجله طرد ، ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة ، هى رمز المحظور الذى تبتلى به الإرادة والطاعة ، ثم وسوسة

الشيطان لهما بتوسع وتفصيل ، وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما لهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه ، وإهباطهم إلى الأرض جميعاً للعمل فى أرض المعركة الكبرى : ﴿**قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾ ثم تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع كرة أخرى ، وعرضهم فى الساحة الكبرى مع التفصيل والحوار ، ثم انتهى فريق إلى الجنة وفريق إلى النار : ﴿**ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين**﴾ .. وأسدل الستار ...

فأما هنا فى هذه السورة فإن نقطة التركيز فى السياق هي سر التكوين فى آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصيلة فى كيان الإنسان .. ومن ثم نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ، ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم ، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافاً من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون ، وطرده ولعنته ، وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته ، وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلصين . إنما سلطانه على من يدينون له ولا يدينون لله ، وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء فى غير حوار ولاعرض ولا تفصيل ، تبعاً لنقطة التركيز فى السياق ، وقد استوفيت ببيان عنصرى الإنسان ، وبيان مجال سلطة الشيطان ..

فلنمض إلى مشاهد القصة فى هذا المجال : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم**﴾ ..

وفى هذا الافتتاح يقرر اختلاف الطبيعتين بين الصلصال – وهو الطين اليابس الذى يصلصل عند نقره ، المتخذ من الطين الرطب الآسن – والنار الموسومة بأنها شعواء سامة .. نار السموم .. وفيما بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله ، أما طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم .

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾

وإذ قال ربك للملائكة : متى قال ؟ وأين قال ؟ وكيف قال ؟ كل أولئك قد أجبنا عنه

فى سورة البقرة : إنه لا سبيل إلى الإجابة ، لأنه ليس لدينا نص يجيب ، وليس لنا من سبيل إلى ذلك الغيب إلا بنص ، وكل ماعدا ذلك ضرب فى التيه بلا دليل .

فأمّا خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان ؟ فهو كذلك مالا ندرى كيفيته ، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال .

وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى فى هذه القضية ، وبخاصة قوله : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين**﴾ وقوله : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من ماء مهين**﴾ أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ، ومن عناصره الرئيسية التى تتمثل بذاتها فى تركيب الإنسان الجسدى وتركيب الأحياء أجمعين ، وأن هنالك أطواراً بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة « سلالة » ، وإلى هنا وتنتهى دلالة النصوص ، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التمحل ليس القرآن فى حاجة إليه ، وللبحث العلمى أن يمضى فى طريقه بوسائله الميسرة له ، فيصل إلى مايصل إليه من فروض ونظريات ، يحقق منها مايجد إلى تحقيقه سبيلًا مضموناً ، ويبدل منها مالا يثبت على البحث والتمحيص ، غير متعارض فى أية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التى تضمنها القرآن ، وهى ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء فى تركيبها على وجه اليقين .

فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولًا ، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيراً ، فهنا السر الذى يعجز عن تعليله البشر أجمعون ، ومايزال سر الحياة فى الخلية الأولى خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه ، فأما سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة على الخلائق الحيوانية جميعاً ، تفوقاً حاسماً فاصلًا منذ بدء ظهور الإنسان ، فأما هذا السر فماتزال النظريات تخبط حوله ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته كما أنها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أى كائن قبله ، مما يزعم بعضها أن الإنسان « تطور » عنه . كما أنها لا تملك نفى الاحتمال الآخر : وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء – وإن كان بعضها أرقى من بعض – ثم نشأة هذا الإنسان متفرداً منذ البدء أيضاً ، والقرآن الكريم يفسر لنا ذلك التفرد ، هذا التفسير المجمل الواضح البسيط : ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ..**﴾ .

فهى روح الله تنقل هذا التكوين العضوى الوضيع إلى ذلك الأفق الإنسانى الكريم ، منذ بدء التكوين ، وتجعله ذلك الخلق المتفرد الذى توكل إليه الخلافة فى الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين ..

كيف ؟..

ومتى كان فى نطاق هذا المخلوق الإنسانى أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم ؟

وهنا كان خلق الشيطان – من قبل – من نار السموم ، فهو سابق إذن للإنسان فى الخلق ، هذا مانعلمه ، أما كيف هو وكيف كان خلقه ، فذلك شأن آخر ، ليس لنا أن نخوض فيه ، إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم ، ندرك من صفاته التأثير فى عناصر الطين بحكم أنه من النار ، والأذى والمسارعة فيه بحكم أنها نار السموم ، ثم تنكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار ، وهى ليست بعيدة فى التصور عن طبيعة النار !

ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال ، ثم من النفخة العلوية التى فرقت بينه وبين سائر الأحياء ، ومنحته خصائصه الإنسانية ، التى أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية ، فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء ، بينما بقيت هى فى مستواها الحيوانى لا تتعداه !

هذه النفخة التى تصله بالملأ الأعلى ، وتجعله أهلاً للاتصال بالله ، وللتلقى عنه ، ولتجاوز النطاق المادى الذى تتعامل فيه العضلات والحواس ، إلى النطاق التجريدى الذى تتعامل فيه القلوب والعقول ، والتى تمنحه ذلك السر الخفى الذى يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة فى بعض الأحيان .

ذلك كله مع ثقلة الطين فى طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته : من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات ، ومن ضعف وقصور وماينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات .. هذا مع أن هذا الكائن « مركّب » منذ البدء من هذين الأفقين اللذين لا ينفصلان فيه ، طبيعته طبيعة « المركّب » لا طبيعة « المخلوط » أو

«الممزوج» .. ولابد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورها كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التى جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين .. إنه لا انفصال بين هذين الأفقين فى تكوينه ، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر فى حالة واحدة من حالاته ، إنه لا يكون طيناً خالصاً فى لحظة ، ولا يكون روحاً خالصاً فى لحظة ، ولا يتصرف تصرفاً واحداً إلا بحكم تركيبه الذى لا يقع فيه الانفصال !

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذى يطلب إليه أن يبلغه ، وهو الكمال البشرى المقدر له ، فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً ، وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان ، والارتفاع الذى يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة ، والحكمة التى من أجلها خلق على هذا النحو الخاص .

والذى يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذى يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة .. كلاهما يخرج على سواء فطرته ، ويريد من نفسه مالم يرده الخالق له ، وكلاهما يدمر نفسه بتدمير ذلك المركب فى كيانها الأصيل ، وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير .

من أجل هذا أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام ، أنكر عليهم كما ورد فى حديث عائشة وقال : «**فمن رغب عن سنتى فليس منى**» (١) .

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك ، وأقام له عليها نظاماً بشرياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر ، إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات ، لتعمل جميعها فى غير طغيان ولا ضعف ، ولا اعتداء من إحداها على الأخرى ، فكل اعتداء يقابله تعطيل ، وكل طغيان يقابله تدمير ، والإنسان حفيظ على خصائص فطرته ومسئول عنها أمام الله ، والنظام الذى يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التى لم يهبها الله جزافاً للإنسان .

(١) – أخرجه النسائى ٤ / ٢٠ ، و «الكنز» (٥٣٨٣) ، و «مشكل الآثار» ٢ / ٨٨ ، و «المجمع» ٢ / ٢٥٩ ، والطبرانى فى «الكبير» ٢ / ٣٢٠ كلهم بألفاظ متقاربة .

والذى يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية فى الإنسان يدمر كيانه المتفرد ، ومثله الذى يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد فى الله والإيمان بالغيب الذى هو من خصائص الإنسان .. والذى يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية ، كالذى يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء .. كلاهما عدو للإنسان يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان !

إن الإنسان حيوان وزيادة .. فله مثل مطالب الحيوان ، وله مايقابل هذه الزيادة ، وليست هذه المطالب دون هذه هى «المطالب الأساسية» كما يزعم أعداء الإنسان من أصحاب المذاهب المادية «العلمية» .

هذه بعض الخواطر التى تطلقها فى النفس حقيقة تكوين الإنسان ، كما يقررها القرآن ، نمر بها سراعاً ، حتى لا نوقف تدفق النص القرآنى فى عرض مشاهد القصة الكبرى ، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات فى نهايتها :

لقد قال الله للملائكة : **﴿إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون* فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾** ..

وقد كان ماقاله الله ، فقوله تعالى إرادة ، وتوجه الإرادة ينشىء الخلق المراد ، ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلى الباقى بالصلصال المخلوق الفانى ، فالجدل على هذا النحو عبث عقلى ، بل عبث بالعقل ذاته ، وخروج به عن الدائرة التى يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم ، وكل ماثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل مايثور إن هو إلّا جهل بطبيعة العقل البشرى وخصائصه وحدوده ، وإقحام له فى غير ميدانه ، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان ، وهو سفه فى إنفاق الطاقة العقلية ، وخطأ فى المنهج من الأساس . إنه يقول : كيف يتلبس الخالد بالفانى ، وكيف يتلبس الأزلى بالحادث ؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل ! بينما العقل الإنسانى ليس مدعواً أصلًا للفصل فى الموضوع ، لأن الله يقول : إن هذا قد كان ، ولا يقول : كيف كان ، فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشرى أن ينفيه ، وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده – غير التسليم بالنص – لأنه لا يملك وسائل الحكم ، فهو حادث ، والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلى فى

لإرادته ، ولا على الأزلى فى خلقه للحادث ، وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية — وهى أن الحادث لا يملك وسائل الحكم الأزلى فى أى صورة من صوره ، يكفى ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفهاً فى غير مجاله المأمون .

فلننظر بعد ذلك ماذا كان : ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ ..

كما هى طبيعة هذا الخلق — الملائكة — الطاعة بلا جدل أو تعويق .

﴿إلّا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ ...

وإبليس خلق غير الملائكة ، فهو من نار ، وهم من نور ، وهم لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وهو أبى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، أما الاستثناء هنا فليس على وجهه ، إنما هو كما تقول : حضر بنو فلان إلّا أحمد ، وليس منهم ، إنما هو معهم فى كل مكان أو ملابسة ، وأما أن الأمر المذكور إلى إبليس يدل عليه مابعده ، وقد ذكر صريحاً فى سورة الأعراف : ﴿قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟﴾ .. وأسلوب القرآن يكتفى بالدلالة اللاحقة فى كثير من المواضع ، فقول الله تعالى له : ﴿مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟﴾ .. قاطع فى أن الأمر قد صدر له ، وليس من الضرورى أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة ، فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم فى ملابسة ما ، وقد يصدر إليه منفرداً ولا يذكر تهويناً لشأنه وإظهاراً للملائكة فى الموقف ، ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة ، وهذا مانختاره .

وعلى أية حال فنحن نتعامل هنا مع مسلمات غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولا كيفياتها فى غير حدود النصوص ، لأن العقل كما أسلفنا لا سبيل له فى هذا المجال بحال من الأحوال .

﴿قال ياإبليس مالك ألّا تكون مع الساجدين * قال لم أكد لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأٍ مسنون ﴾..

وصرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان فى ذلك المخلوق من نار السموم ، وذكر إبليس الصلصال والحمأ ، ولم يذكر النفخة العلوية التى تلابس هذا الطين ، وتشامخ برأسه المغرور يقول : إنه ليس من شأنه فى عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون !

وكان ماينبغى أن يكون : **﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾** .. جزاء العصيان والشرود .

عندئذ تتبدى خليقة الحقد وخليقة الشر : **﴿قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾** ..

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث ، لا ليندم على خطيئته فى حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم ، ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء مالعنه الله وطرده ، يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله فى تبجح نكير !

﴿قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلصين﴾ ..

وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة ، إنها الأرض : **﴿لأزينن لهم فى الأرض﴾** ..

وحدد عدته فيها إنه التزيين ، تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه ، وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلّا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله ، وتظهره فى غير حقيقته وردائه ، فليفطن الناس إلى عدة الشيطان ، وليحذروا كلما وجدوا فى أمر تزييناً ، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاء ، ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك ، إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان – بشرطه هو – على عباد الله المخلصين من سبيل : **﴿ولأغوينهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلصين﴾** ..

والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ، ويجردها له وحده ، ويعبده كأنه يراه ، وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان .

هذا الشرط الذى قرره إبليس اللعين قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه ، لأنه سنة الله .. أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه ، وأن يحميه ويرعاه .. ومن ثم كان الجواب : **﴿هذا صراط علىّ مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من الغاوين﴾** ..

هذا صراط ، هذا ناموس ، هذه سنة ، وهى السنة التى ارتضتها الإرادة قانوناً وحكماً

فى الهدى والضلال ، ﴿**إن عبادى**﴾ المخلصين لى ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ، ولا تملك أن تزين لهم لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك فى حمى ، ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة ، وهم يعلقون أبصارهم بالله ، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله ، إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين ، فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزءاً من عباد الله المخلصين ، إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع ، فأما من يخلصون أنفسهم لله ، فالله لا يتركهم للضياع ، ورحمة الله أوسع ولو تخلفوا فإنهم يؤوبون من قريب !

فأما العاقبة ، عاقبة الغاوين ، فهى معلنة فى الساحة منذ البدء : ﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ ..

فهؤلاء الغاوون صنوف ودرجات ، والغواية ألوان وأشكال ، ولكل باب منهم جزء مقسوم ، بحسب مايكونون ومايعملون .

وينتهى المشهد وقد وصل السياق بالقصة إلى نقطة التركيز وموضع العبرة ، ووضح كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس ، وكيف تغلب خصائص الطين فى الإنسان على خصائص النفخة ، فأما من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روحه فلا سلطان عليه للشيطان ..

وبمناسبة ذكر مصير الغاوين يذكر مصير المخلصين : ﴿**إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا مافى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين**﴾ ..

والمتقون هم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه ، ولعل العيون فى الجنات تقابل فى المشهد تلك الأبواب فى جهنم ، وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين فى مقابل الخوف والفزع هناك ، ونزعنا مافى صدورهم من غل ، فى مقابل الحقد الذى يغلى به صدر إبليس فيما سلف من السياق ، لا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجا ، جزاء ماخافوا فى الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن فى جوار الله الكريم ...

وبعد : فإن قصة البشرية الكبرى — كما تعرض فى هذا السياق القرآنى — تستحق تعقيبات مفصلة لا نملك أن نستطرد فيها — فى ظلال القرآن ، فنكتفى أن نلم بها إلماماً ،

على قدر المناسبة :

إن المعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان فى هذه الأرض ترتكز ابتداء إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيداً عن منهج الله ، والتزيين له فيما عداه ، استدراجه إلى الخروج من عبادة الله – أى الدسونة له فى كل ماشرع من عقيدة وتصور ، وشعيرة ونسك ، وشريعة ونظام – فأما الذين يدينون له وحده – أى يعبدونه وحده – فليس للشيطان عليهم من سلطان .. ﴿**إن عبادى ليس لك عليهم سلطان**﴾ ..

ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التى وعد بها المتقون ، وبين الاتجاه إلى جهنم التى وعد بها الغاوون ، هو الدينونة لله وحده – التى يعبر عنها فى القرآن دائماً بالعبادة – أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة .

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله سبحانه ، ولا صفاته .. أى إنه لم يكن يلحـ . فى الله من ناحية العقيدة ! إنما الذى فعله هو الخروج على الدينونة لله .. وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين .

إن الدينونة لله وحده هى مناط الإسلام ، فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله فى حكم من الأحكام ، وسواء كان هذا الحكم خاصاً بالاعتقاد والتصور ، أو خاصاً بالشعائر والمناسك ، أو خاصاً بالشرائع والقوانين ، أو خاصاً بالقيم والموازين .. فهو سواء .. الدينونة فيه لله هى الإسلام ، والدينونة فيه لغير الله هى الجاهلية الذاهبة مع الشيطان .

ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة ، واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع ، فالدينونة لله كل لا يتجزأ ، وهى العبادة لله فى معناها اللغوى وفى معناها الاصطلاحى على السواء .. وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان !

المعـــركة الرابعـــة بيـــن آدم وإبليـــــس

قال تعالى : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً * قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلًا * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلّا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا**﴾ [الإسراء : ٦١ – ٦٥] .

وفى هذا الموضع من السياق تجىء قصة إبليس مع آدم ، وإذن الله لإبليس فى ذرية آدم إلا الصالحين من عباده فقد عصمهم من سلطانه وإغوائه .. فتكشف القصة عن أسباب الغواية الأصيلة التى تقود الناس إلى الكفر والطغيان ، وتبعدهم عن تدبر الآيات ..

إن السياق يكشف عن الأسباب الأصيلة لضلال الضالين ، فيعرض هذا المشهد هنا ، ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية ، ويرون إبليس عدوهم وعدو أبيهم يتهددهم بها ، عن إصرار سابق قديم !

﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً ؟**﴾

إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله فى هذا الطين !

ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية ، فيقول فى تبجح : ﴿**أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ ؟**﴾ أترى هذا المخلوق الذى جعلته أكرم منى عندك ؟

﴿**لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلًا**﴾ .. فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم فى قبضة يدى أصرف أمرهم .

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية ، عن حالته التى يكون فيها متصلًا بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية ، ويغفل عن أن هذه هى مزية هذا المخلوق التى ترفعه على ذوى الطبيعة المفردة التى لا تعرف إلا طريقاً واحداً

تسلكه بلا إرادة ، فالإرادة هى سر هذا المخلوق العجيب .

وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام ، يحاول محاولته مع بنى الإنسان : ﴿قالَ اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا﴾ ..

اذهب فحاول محاولتك ، اذهب مأذوناً فى إغوائهم ، فهم مزودون بالعقل والإرادة ، يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك ﴿فمن تبعك منهم﴾ مغلباً جانب الغواية فى نفسه على جانب الهداية ، معرضاً عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان ، غافلًا عن آيات الله فى الكون ، وآيات الله المصاحبة للرسالات ، ﴿فإن جهنم جزاؤكم﴾ أنت وتابعيك ﴿جزاءً موفوراً﴾ ..

﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، فهى المعركة الصاخبة ، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال !

﴿وشاركهم فى الأموال والأولاد﴾ ..

وهذه الشركة تتمثل فى أوهام الوثنية الجاهلية ، إذ كانوا يجعلون فى أموالهم نصيباً للآلهة المدعاة — فهى للشيطان — وفى أولادهم نذوراً للآلهة أو عبيداً لها — فهى للشيطان — كعبد اللات وعبد مناة ، وأحياناً كانوا يجعلونها للشيطان رأساً كعبد الحارث !

كما تتمثل فى كل مال يجبى من حرام ، أو يتصرف فيه بغير حق ، أو ينفق فى إثم ، وفى كل ولد يجيء من حرام ، ففيه شركة للشيطان .

والتعبير يصور فى عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة !

وإبليس مأذون فى أن يستخدم وسائله كلها ، ومنها الوعود المغرية الخادعة : ﴿وعدهم

ومايعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾ كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص ، والوعد بالغنى من الأسباب الحرام ، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة ...

ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ، وهى الثغرة التى يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التى يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة ، فيتلطف حيئنذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة !

اذهب مأذوناً فى إغواء من يجنحون إليك ، ولكن هنالك من لا سلطان لك عليهم ، لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك !
﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا﴾ ..

فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة ، متى ارتبط بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، متى أيقظ فى روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت .. فلا سلطان حيئنذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان .. **﴿وكفى بربك وكيلًا﴾** يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان .

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده ، ويستذل عبيده ، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن ، فما له عليهم من سلطان .

ذلك مايبيته الشيطان للناس من شر وأذى ، ثم يوجد فى الناس من يتبعون هذا الشيطان ، ويستمعون إليه ، ويعرضون عن نداء الله لهم وهدايته ، والله رحيم بهم يعينهم ويهديهم وييسر لهم المعاش ، وينجيهم من الضر والكرب ، ويستجيب لهم فى موقف الشدة والضيق .. ثم إذا هم يعرضون ويكفرون ....

المعركة الخامسة بين آدم وإبليس

قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلًا * ماأشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وماكنت متخذ المضلين عضداً** ﴾ [الكهف : ٥٠ – ٥١] .

وهذه الإشارة إلى تلك القصة القديمة تجيء هنا للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون ذرية إبليس أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم .

واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل فى تلبية دواعى المعصية والتولى عن دواعى الطاعة .

ولماذا يتولون أعداءهم هؤلاء ، وليس لديهم علم ولا لهم قوة ، فالله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه ، والله لا يتخذهم عضداً فتكون لهم قوة : ﴿ **ماأشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وماكنت متخذ المضلين عضداً** ﴾ ..

إنما هو خلق من خلق الله ، لا يعلمون غيبهُ ، ولا يستعين بهم سبحانه .. ﴿ **وماكنت متخذ المضلين عضداً** ﴾ فهل يتخذ الله سبحانه غير المضلين عضداً ؟

وتعالى الله الغنى عن العالمين ، ذو القوة المتين .. إنما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين لتتبعها واستئصالها ، فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله ، إنما يسلكون هذا المسلك توهماً منهم أن للشيطان علماً خفياً ، وقوة خارقة ، والشيطان مضل ، والله يكره الضلال والمضلين ، فلو أنه – على سبيل الفرض والجدل – كان متخذاً له مساعدين ، لما اختارهم من المضلين !

المعـــركة الســــادسة بيـــن آدم والشـــيطان

قال تعالى : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً﴾ [طه : ١١٥]

وعهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة ، تمثل المحظور الذى لابد منه لتربية الإرادة ، وتأكيد الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذى يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ، فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها ، وهذا هو المقياس الذى لا يخطىء فى قياس الرقى البشرى ، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى فى سلم الرقى البشرى ، وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى .

من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التى ترعى هذا الكائن الإنسانى أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته ، وتنبيه قوة المقاومة فيه ، وفتح عينيه على ماينتظره من صراع بين الرغائب التى يزينها الشيطان ، وإرادته وعهده للرحمن ، وهاهى ذى التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى : ﴿فنسى ولم نجد له عزماً﴾ ثم تعرض تفصيلاتها : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ [طه : ١١٦]

هكذا فى إجمال يجىء هذا المشهد الذى يفصل فى سور أخرى ، لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية .. فيعجل بمظاهر النعمة فى الرعاية : ﴿فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ [طه : ١١٧ - ١١٩]

وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره ، عقب نشوزه وعصيانه ، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان .. كلها تنتظر هناك خارج الجنة ، وأنت فى حمى منها كلها مادمت فى رحاب

الفردوس .. ﴿**إن لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾ .. فهذا كله مضمون لك مادمت فى رحابها ، والجوع والعرى ، يتقابلان مع الظمأ والضحوة ، وهى فى مجموعها تمثل متاعب الإنسان الأولى فى الحصول على الطعام والكساء والشراب والظلال .

ولكن آدم كان غفلًا من التجارب ، وهو يحمل الضعف البشرى تجاه الرغبة فى البقاء والرغبة فى السلطان ، ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان :

﴿**فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟**﴾ [طه : ١٢٠] .

لقد لمس فى نفسه الموضع الحساس ، فالعمر البشرى محدود ، والقوة البشرية محدودة ، من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل ، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان ، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر لأمر مقدور وحكمة مخبوءة .. ومن ثم نسى العهد ، وأقدم على المحظور :

﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .. وعصى آدم ربه فغوى**﴾ [طه : ١٢١] .

والظاهر أنها السوءات الحسية تبدت لهما وكانت عنهما مستورة ، وأنها مواضع العفة فى جسديهما ، يرجح ذلك أنهما أخذا يسترانها بورق الجنة يشبكانه ليستراهذه المواضع ، وقد يكون ذلك إيذاناً باستيقاظ الدوافع الجنسية فى كيانهما ، فقبل يقظة هذه الدوافع لا يحس الإنسان بالخجل من كشف مواضع العفة ولا ينتبه إليها ولكنه ينتبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخجل من كشفها .

وربما كان حظر هذه الشجرة عليهما ، لأن ثمارها مما يوقظ هذه الدوافع فى الجسم تأجيلًا لها فترة من الزمان كما يشاء الله ، وربما كان نسيانهما عهد الله وعصيانهما له تبعه هبوط فى عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبهت فيهما دوافع الجنس ، وربما كانت الرغبة فى الخلود تجسمت فى استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل ، فهذه هى الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردى المحدود .. كل

هذه فروض لتفسير مصاحبة ظهور سوآتهما لهما للأكل من الشجرة ، فهو لم يقل : فبدت سوآتهما ، إنما قال : فبدت لهما سوآتهما ، مما يؤذن أنها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلى من إحساسهما .. وقد جاء فى موضع آخر عن إبليس : ﴿**ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما**﴾ .. وجاء : ﴿**ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما**﴾ وقد يكون اللباس الذى نزعه الشيطان ليس لباساً مادياً إنما هو شعور ساتر ، قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله . وعلى أية حال فهى مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكدها ولا نرجح واحداً منها ، إنما هى لتقرب صورة التجربة الأولى فى حياة البشرية .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله ، بعدما عصاه ، فقد كانت هذه هى التجربة الأولى :
﴿**ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾ [طه : ١٢٢] .

بعدما استغفر آدم وندم واعتذر ، ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله فى الجو وحدها ..

ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى :
﴿**قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو**﴾ ..

وبذلك أعلنت الخصومة فى الثقلين ، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدرى ، فقد درى وعلم ، وأعلن هذا الأمر العلوى فى الوجود كله : ﴿**بعضكم لبعض عدو**﴾ !

ومع هذا الإعلان الذى دوت به السماوات والأرض ، وشهده الملائكة أجمعون ، شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى ، قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم ، فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس ، أنه آتيهم بهدى منه ، فمجازٍ كلًّا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى :

﴿**فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً * ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى**﴾ .. [طه : ١٢٣ - ١٢٧] .

يجىء هذا المشهد بعد القصة كأنه جزء منها ، فقد أعلن عنه فى ختامها فى الملأ الأعلى ، فذلك أمر إذن قضى فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل ....

المعـــركة الســـابعة بيـــن آدم وإبليـــس

قال تعالى :

﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلّا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدىَّ أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإنّ عليك لعنتى إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلصين * قال فالحقُّ والحقَّ أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ . [ص : ٦٧ - ٨٥] .

يأخذ السياق فى عرض قصة البشرية ، ومادار فى الملأ الأعلى بشأنها منذ البدء ، مما يحدد خط سيرها ، ويرسم أقدارها ومصائرها ، وهو ماأرسل محمد ﷺ ليبلغه وينذر به فى آخر الزمان : ﴿**إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**﴾ ..

وماندرى نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة ، وماندرى كذلك كيف يتلقى الملائكة عن الله ولا ندرى عن كنههم إلّا مابلغنا من صفاتهم فى كتاب الله ، ولا حاجة بنا إلى الخوض فى شيء من هذا الذى لا طائل وراء الخوض فيه ، إنما نمضى إلى مغزى القصة ودلالتها كما يقصها القرآن .

لقد خلق الله هذا الكائن البشرى من الطين ، كما أن سائر الأحياء فى الأرض خلقت من طين ، فمن الطين كل عناصرها ، فيما عدا سر الحياة الذى لا يدرى أحد من أين جاء ولا كيف جاء ، ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشرى فيما عدا ذلك السر ، وفيما عدا تلك النفخة العلوية التى جعلت منه إنساناً ، من الطين كل عناصر جسده ، فهو من أمه الأرض ، ومن عناصرها تكون ، وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السر

الإلهى المجهول ، وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التى حددت خط سيره فى الحياة ...

ونحن نجهل كنه هذه النفخة ، ولكننا نعرف آثارها ، فآثارها هى التى ميزت هذا الكائن الإنسانى عن سائر الخلائق فى هذه الأرض ، ميزته بخاصية القابلية للرقى العقلى والروحى ، هى التى جعلت عقله ينظر تجارب الماضى ، ويصمم خطط المستقبل ، وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواسّ والمدارك بالعقول ، ليتصل بالمجهول الحواس والعقول .

وخاصية الارتقاء العقلى والروحى خاصية إنسانية بحتة ، لا يشاركه فيها سائر الأحياء فى هذه الأرض ، وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء ، ولم يقع فى هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس — ولا أحد أفراده — عقلياً أو روحياً ، حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوى .

لقد نفخ الله من روحه فى هذا الكائن البشرى ، لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة فى الأرض ، وأن يتسلم مقاليد هذا الكوكب فى الحدود التى قدرها له ، حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات :

لقد أودعه القدرة على الارتقاء فى المعرفة ، ومن يومها وهو يرتقى كلما اتصل بمصدر تلك النفخة ، واستمد من هذا المصدر فى استقامة ، فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوى فإن تيارات المعرفة فى كيانه وفى حياته لا تتناسق ، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام ، وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطراً على سلامة اتجاهه ، إن لم تقده إلى نكسة فى خصائصه الإنسانية ، تهبط به فى سلم الارتقاء الحقيقى ، ولو تضخمت علومه وتجاربه فى جانب من جوانب الحياة ...

وماكان لهذا الكائن الصغير الحجم ، المحدود القوة ، القصير الأجل ، المحدود المعرفة .. ماكان له أن ينال شيئاً من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة .. وإلّا فمن هو ؟ إنه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذى يحيا على هذا الكوكب الأرضى مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء ، ومالكوكب الأرضى إلّا تابع صغير من توابع أحد النجوم ، ومن هذه النجوم ملايين الملايين فى ذلك الفضاء الذى لا يدرى إلا الله مداه ..

فماذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له ملائكة الرحمن ، إلا بهذا السر اللطيف العظيم ؟ إنه بهذا السر كريم كريم ، فإذا تخلى عنه أو انفصم منه ارتد إلى أصله الزهيد .. من الطين !

ولقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هى فطرتهم :

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ ..

كيف ؟ وأين ؟ ومتى ؟ كل أولئك غيب من غيب الله ، ومعرفته لا تزيد فى مغزى القصة شيئاً ، هذا المغزى الذى يبرز فى تقدير قيمة هذا الإنسان المخلوق من الطين ، بعدما ارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم .

سجد الملائكة امتثالًا لأمر الله ، وشعوراً بحكمته فيما يراه .. **﴿إلّا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾** ..

فهل كان إبليس من الملائكة ؟ الظاهر أنه لا ، لأنه لو كان من الملائكة ماعصى ، فالملائكة لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون .. وسيجىء أنه خلق من نار ، والمأثور أن الملائكة خلق من نور .. ولكنه كان مع الملائكة وكان مأموراً بالسجود ، ولم يخص بالذكر الصريح عند الأمر إهمالًا لشأنه بسبب ماكان من عصيانه ، إنما عرفنا أن الأمر كان قد وجه إليه من توجيه التوبيخ إليه : **﴿قال ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ أستكبرت ؟ أم كنت من العالين ؟﴾** ...

مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ والله خالق كل شىء ، فلابد أن تكون هناك خصوصية فى خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه ، هى خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية . أستكبرت ؟ عن أمرى **﴿أم كنت من العالين ؟﴾** الذين لا يخضعون ؟ **﴿قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾** !

إنه الحسد ينضح من هذا الرد ، والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين فى آدم ، والذى يستحق هذا التكريم ، وهو الرد القبيح الذى يصدر عن الطبيعة التى تجردت من الخير كله فى هذا الموقف المشهود ..

هنا صدر الأمر الإلهى العالى بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح : ﴿**قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين**﴾ .. ولا نملك أن نحدد عائد الضمير فى قوله : ﴿**منها**﴾ فهل هى الجنة ؟ أم هل هى رحمة الله .. هذا وذلك جائز ، ولا محل للجدل الكثير ، فإنما هو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرؤ على أمر الله الكريم .

هنا تحول الحسد إلى حقد ، وإلى تصميم على الانتقام فى نفس إبليس : ﴿**قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون**﴾ ..

واقتضت مشيئة الله للحكمة المقدرة فى علمه أن يجيبه إلى ماطلب ، وأن يمنحه الفرصة التى أراد : ﴿**قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم**﴾ ..

وكشف الشيطان عن هدفه الذى ينفق فيه حقده : ﴿**قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلصين**﴾ ..

وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه ، إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين ، لا يستثنى إلا من ليس له عليهم سلطان ، لا تطوعاً منه ولكن عجزاً عن بلوغ غايته فيهم ! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده ، والعاصم الذى يحول بينهم وبينه ، إنه عبادة الله التى تخلصهم لله ، هذا هو طوق النجاة ، وحبل الحياة !.. وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره فى الردى والنجاة ، فأعلن سبحانه إرادته وحدد المنهج والطريق : ﴿**قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**﴾ ..

والله يقول الحق دائماً ، والقرآن يقرر هذا ويؤكد الإشارة إليه فى هذه السورة فى شتى صوره ومناسباته ، فالخصم الذين تسوروا المحراب على داود يقولون له : ﴿**فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط**﴾ .. والله ينادى عبده داود : ﴿**فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى**﴾ .. ثم يعقب على هذا بالإشارة إلى الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض : ﴿**وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلًا ، ذلك ظن الذين كفروا**﴾ .. ثم يجىء ذكر الحق على لسان القوى العزيز : ﴿**قال فالحق والحق أقول**﴾ .. فهو الحق الذى تتعدد مواضعه وصوره ، وتتحد طبيعته وكنهه ، ومنه هذا الوعد الصادق : ﴿**لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**﴾ ..

وهى المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم ، يخوضونها على علم ، والعاقبة مكشوفة لهم فى وعد الله الصادق الواضح المبين ، وعليهم تبعة مايختارون لأنفسهم بعد هذا البيان ، وقد شاءت رحمة الله ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين ، فأرسل إليهم المنذرين .

إبليس يَصْدُقُ ظنه

قال تعالى : ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وماكان له عليهم من سلطان إلّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ﴾ [سبأ : ٢٠ - ٢١] .

لقد سلك القوم هذا المسلك ، - وهم ساكنو سبأ حيث أعرضوا عن شكر الله وعن العمل الصالح .. - الذى انتهى إلى أن بدل الله جنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل -، لأن إبليس صدق عليهم ظنه فى قدرته على غوايتهم ، فأغواهم ، ﴿فاتبعوه إلّا فريقاً من المؤمنين﴾ .. كما يقع عادة فى الحماعات فلا تخلو من قلة مؤمنة تستعصى على الغواية ، وتثبت أن هنالك حقاً ثابتاً يعرفه من يطلبه ، ويمكن لكل من أراد أن يجده وأن يستمسك به ، حتى فى أحلك الظروف ، وماكان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لا يملكون رفعه ، فليس هنالك قهر لهم منه ولا سيطرةٌ عليهم له ، إنما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيغ منهم من لا يبتغى الحق ويتحراه ، وليظهر فى عالم الواقع ﴿من يؤمن بالآخرة﴾ فيعصمه إيمانه من الانحراف . ﴿ممن هو منها فى شك﴾ .. فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية ، بلا عاصم من رقابة لله ولا تطلع لليوم الآخر .

والله يعلم مايقع قبل ظهوره للناس ، ولكنه سبحانه يرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلًا فى دنيا الناس .

وفى هذا المجال الواسع المفتوح ، مجال تقدير الله وتدبيره للأمور والأحداث ، ومجال غواية إبليس للناس ، بلا سلطان قاهر عليهم ، إلّا تسليطه ليظهر المكنون فى علم الله من المصائر والنتائج .. فى هذا المجال الواسع تتصل قصة سبأ بقصة كل قوم فى كل مكان وفى كل زمان ، ويتسع مجال النص القرآنى ومجال هذا التعقيب ، فلا يعود قاصراً على قصة سبأ ، إنما يصلح تقريراً لحال البشر أجمعين ، فهى قصة الغواية والهداية وملابساتهما وأسبابهما وغاياتهما ونتائجهما فى كل حال ...

التحـذير من أسـاليب الشـيطان ومداخـله

قال تعالى :

﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون * يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ [الأعراف : ٢٦ - ٢٧] .

قفوا هنا نتدبر مافى هذه المرحلة من عبرة قبل أن نمضى قدماً فى الرحلة الكبرى ! وهى وقفة فى مواجهة المعركة التى بانت طلائعها بين الشيطان والبشرية. وقفة للتحذير من أساليب الشيطان ومداخله ، ولكشف خطته ماكان منها وما يكون متمثلاً فى صور وأشكال شتى ..

ولكن القرآن - وهذا منهجه - لا يعرض توجيهاً إلا لمواجهة حالة قائمة ، ولا يقص قصصاً إلا لأن له موقعاً فى واقع الحركة الإسلامية .. إنه كما قلنا لا يعرض قصصاً لمجرد المتاع الفنى ! ولا يقرر حقيقة لمجرد عرضها النظرى .. إن واقعية الإسلام وجديته تجعلان توجيهاته وتقريراته ، لمواجهة حالات واقعة بالفعل فى مواجهة الحركة الإسلامية .

وقد كان واقع الجاهلية العربية هو الذى يواجهه التعقيب هنا عقب المرحلة الأولى من قصة البشرية الكبرى .. كانت قريش قد ابتدعت لنفسها حقوقاً على بقية مشركى العرب الذين يفدون لحج بيت الله - الذى جعلوه بيتاً للأصنام وسدنتها !- وأقامت هذه الحقوق على تصورات اعتقادية زعمت أنها من دين الله ، وصاغتها فى شرائع ، زعمت أنها من شرع الله ! وذلك لتخضع لها أعناق المشركين ، كما يصنع السدنة والكهنة والرؤساء فى كل جاهلية على وجه التقريب .. وكانت قريش سمت نفسها اسماً خاصاً وهو «الحُمس» وجعلوا لأنفسهم حقوقاً ليست لسائر العرب ، ومن هذه الحقوق - فيما يختص بالطواف بالبيت - أنهم هم وحدهم لهم حق الطواف فى ثيابهم ، فأما بقية العرب فلا تطوف فى ثياب لبستها من قبل . فلابد أن تستعير من ثياب الحمس للطواف أو تستجد ثياباً لم تلبسها

من قبل وإلا طافوا عرايا وفيهم النساء !

قال ابن كثير فى التفسير : كانت العرب – ماعدا قريشاً – لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها ، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها ! وكانت قريش – وهم الحمس – يطوفون فى ثيابهم . ومن أعاره أحمسى ثوباً طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ! ومن لم يجد ثوباً جديداً ، ولا أعاره أحمسى ثوباً طاف عرياناً ! وربما كانت امرأة فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر .. وأكثر ماكان النساء يطفن عراة بالليل وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال : **﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾** ..

فقال تعالى رداً عليهم : **﴿قل﴾** أى يامحمد لمن ادعى ذلك .. **﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾** أى هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك .. **﴿أتقولون على الله مالا تعلمون﴾** .. أى أتسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته . وقوله تعالى : **﴿قل أمر ربى بالقسط﴾** .. أى بالعدل والاستقامة ...

ففى مواجهة هذا الواقع الجاهلى فى شئون التشريع للعبادة والطواف واللباس – مضافاً إليه مايختص بتقاليد كهذه فى الطعام يزعمون أنها من شرع الله وليست من شرع الله – فى مواجهة هذا الواقع جاءت تلك التعقيبات على قصة البشرية الأولى . وجاء ذلك الأكل من ثمر الجنة – إلا ماحرم الله – وجاء ذكر اللباس خاصة ، ونزع الشيطان له عن آدم وزوجه بإغوائه لهما بتناول المحظور ، وجاء ذكر حيائهما الفطرى من كشف السوآت ، وخصفهما على سوآتهما من ورق الجنة ..

فما ذكر من أحداث القصة ، وماجاء فى التعقيب الأول عليها ، هو مواجهة واقعية لواقع معين فى الجاهلية ..

والقصة تذكر فى مواضع أخرى من القرآن ، فى سور أخرى ، لمواجهة حالات أخرى ، فتذكر منها مواقف ومشاهد ، وتذكر بعدها تقريرات وتعقيبات تواجه هذه

الحالات الأخرى .. وكله حق .. ولكن تفصيل القرآن لمواجهة الواقع البشرى هو الذى يقتضى هذا الاختيار والتناسق بين حلقات القصص المعروض فى كل معرض ، وطبيعة الجو والموضوع فى كلّ معرض ..

﴿يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ ...

هذا النداء يجىء فى ظل المشهد الذى سبق عرضه من القصة .. مشهد العرى وتكشف السوآت والخصف من ورقة الجنة .. لقد كان هذا ثمرة للخطيئة .. والخطيئة كانت فى معصية أمر الله ، وتناول المحظور الذى نهى عنه الله .. وليست هى الخطيئة التى تتحدث عنها أساطير الكتاب المقدس ! والتى تعج بها التصورات الفنية الغربية المستقاة من تلك الأساطير ومن إيحاءات « فرويد » المسمومة .. لم تكن هى الأكل من « شجرة المعرفة » – كما تقول أساطير العهد القديم . وغيرة الله – سبحانه وتعالى – من الإنسان وخوفه – تعالى عن وصفهم علواً كبيراً – من أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيصبح كواحد من الآلهة ! كما تزعم تلك الأساطير ، ولم تكن كذلك هى المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوربى دائماً حول مستنقع الوحل الجنسى ، لتفسر به كل نشاط الحياة كما علمهم فرويد اليهودى !..

وفى مواجهة مشهد العرى الذى أعقب الخطيئة ومواجهة العرى الذى كان يزاوله المشركون فى الجاهلية يذكر السياق فى هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم ويسر لهم ، وشرع لهم كذلك ، اللباس الذى يستر العورات المكشوفة ثم يكون زينة – بهذا الستر – وجمالًا ، بدل قبح العرى وشناعته – ولذلك يقول : **﴿أنزلنا﴾** أى : شرعنا لكم فى التنزيل ، واللباس قد يطلق على مايوارى السوأة وهو اللباس الداخلى والرياش قد يطلق على مايستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثياب ، كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال .. وهى كلها معان متداخلة ومتلازمة : **﴿يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً﴾** كذلك يذكر هنا « لباس التقوى » : **﴿ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله ..﴾** ..

قال عبد الرحمن بن أسلم : يتقى الله فيوارى عورته فذاك لباس التقوى .. فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة ، وبين التقوى .. كلاهما لباس ، هذا يستر عورات القلب ويزينه ، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه ، وهما متلازمان ، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه ، ومن لا يستحى من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العرى .. العرى من الحياء والتقوى ، والعرى من اللباس وكشف السوأة !

إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئى - كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية الشعة التى تتضمنها مقررات حكماء صهيون - إنما هى فطرة خلقها الله فى الإنسان ، ثم هى شريعة أنزلها الله للبشر ، وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم فى الأرض من مقدرات وأرزاق .

والله يذكر بنى آدم بنعمته عليهم فى تشريع اللباس والستر ، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ! وفى تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل : **﴿لعلهم يذكرون﴾** ..

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم ، والدعوة السافرة لهم إلى العرى الجسدى - باسم الزينة والحضارة والمودة - وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم ، والتعجيل بانحلالهم ليسهل تعبيدهم لملك صهيون ! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين فى صورة عواطف غامضة فى أعماق النفوس ! فحتى هذه توجه له معاول السحق ، بتلك الحملة الفاجرة الداعرة إلى العرى النفسى والبدنى الذى تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود فى كل مكان ! والزينة الإنسانية هى زينة الستر ، بينما الزينة الحيوانية هى زينة العرى .. ولكن الآدميين فى هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة ، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها !!

﴿يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين

لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون * قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ ..
[الأعراف : ٢٧ - ٣٠]

إنه النداء الثانى لبنى آدم فى وقفة التعقيب على قصة أبويهم ، وماجرى لهما مع الشيطان ، وعلى مشهد العرى الذى أوقفهما فيه عدوهما ، بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما .

وهذا النداء يصبح مفهوماً بما قدمناه من الحديث عن تقاليد الجاهلية العربية فى حكاية العرى عند الطواف بالبيت ، وزعمهم أن ماوجدوا عليه آباءهم هو من أمر الله وشرعه !

لقد كان النداء الأول تذكيراً لبنى آدم بذلك المشهد الذى عاناه أبواهم ، وبنعمة الله فى إنزال اللباس الذى يستر العورة والرياش الذى يتجمل به ..

أما هذا النداء الثانى فهو التحذير لبنى آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام فى الطليعة ، أن يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ، فيسلمهم إلى الفتنة - كما فعل مع أبويهم من قبل إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما - فالعرى والتكشف الذى يزاولونه - والذى هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً - هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية ، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة فى إغواء آدم وبنيه ، وهو طرف من المعركة التى لا تهدأ بين الإنسان وعدوه ، فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم ، وأن ينتصر فى هذه المعركة ، وأن يملأ منهم جهنم فى نهاية المطاف !

﴿يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ ..

وزيادة فى التحذير ، واستثارة للحذر ، ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم . وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ، وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط ، وإلى مضاعفة اليقظة ، وإلى دوام الحذر ، كى لا يأخذهم على غرة :

﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ ..

ثم الإيقاع المؤثر الموحى بالتوقى .. إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .. وياويل من كان عدوه وليه ، إنه إذن يسيطر عليه ويستهويه ويقوده حيث شاء ، بلا عون ولا نصير ، ولا ولاية من الله : **﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾** ..

وإنها لحقيقة .. أن الشيطان ولى الذين لا يؤمنون ، كما أن الله هو ولى المؤمنين .. وهى حقيقة رهيبة ، ولها نتائجها الخطيرة .. وهى تذكر هكذا مطلقة ، ثم يواجه بها المشركون كحالة واقعة ، فنرى كيف تكون ولاية الشيطان ، وكيف تفعل فى تصورات الناس وحياتهم .. وهذا نموذج منها : **﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾** ..

وذلك ماكان يفعله ويقول به مشركو العرب ، وهم يزاولون فاحشة التعرى فى الطواف ببيت الله الحرام – وفيهم النساء – ثم يزعمون أن الله أمرهم بها ، فقد كان أمر آباءهم بها ففعلوها ، ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها !

وهم – على شركهم – لم يكونوا يتبجحون تبجح الجاهليات الحديثة التى تقول : ماللدين وشئون الحياة ؟ وتزعم أنها هى صاحبة الحق فى اتخاذ الأوضاع والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد من دون الله ! إنما كانوا يفترون الفرية ، ويشرعون الشريعة ، ثم يقولون : الله أمرنا بها ! وقد تكون هذه خطة ألأم وأخبث ، لأنها تخدع الذين فى قلوبهم بقية من عاطفة دينية ، فتوهمهم أنِ هذه الشريعة من عند الله .. ولكنها على كل حال أقل تبجحاً ممن يزعم أن له الحق فى التشريع للناس بما يراه أصلح لأحوالهم من دون الله !

والله سبحانه يأمر نبيه ﷺ أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله ، وبتقرير طبيعة شرع الله وكراهته للفاحشة ، فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها : **﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون﴾** ؟

إن الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً – والفاحشة : كل مايفحش أى يتجاوز الحد –

والعرى من هذه الفاحشة ، فالله لا يأمر به ، وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده ؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى ؟ ومن الذى أعلمهم بأمر الله ذاك ؟ إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء ، إن أوامره وشرائعه واردة فى كتبه على رسله ، وليس هناك مصدر آخر يعلم منه قول الله وشرعه وليس لإنسان أن يزعم عن أمر أنه من شريعة الله ، إلا أن يستند إلى كتاب الله وإلى تبليغ رسول الله ، فالعلم المستيقن بكلام الله هو الذى يستند إليه من يقول فى دين الله .. وإلا فأى فوضى يمكن أن تكون إذا قدم كل إنسان هواه ، وهو يزعم أنه دين الله !!

إن الجاهلية هى الجاهلية ، وهى دائماً تحتفظ بخصائصها الأصيلة ، وفى كل مرة يرتد الناس إلى الجاهلية يقولون كلاماً متشابهاً ، وتسود فيهم تصورات متشابهة ، على تباعد الزمان والمكان .. وفى هذه الجاهلية التى نعيش فيها اليوم لا يفتأ يطلع علينا كاذب مفتر يقول مايمليه عليه هواه ثم يقول : شريعة الله ! ولا يفتأ يطلع علينا متبجح وقح ينكر أوامر الدين ونواهيه المنصوص عليها ، وهو يقول : إن الدين لا يمكن أن يكون كذلك ! إن الدين لا يمكن أن يأمر بهذا ! إن الدين لا يمكن أن ينهى عن ذلك ، وحجته هى هواه !! ﴿**أتقولون على الله مالا تعلمون ؟**﴾ ..

وبعد أن ينكر عليهم دعواهم فى أن الله أمرهم بهذه الفاحشة ، يبين لهم أن أمر الله يجرى فى اتجاه مضاد .. لقد أمر الله بالعدل والاعتدال فى الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز ، وأمر بالاستقامة على منهج الله فى العبادة والشعائر ، والاستمداد مما جاء فى كتابه على رسوله ﷺ ولم يجعل المسألة فوضى ، يقول فيها كل إنسان بهواه ، ثم يزعم أنه من الله ، وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له ، والعبودية كاملة ، فلا يدين أحد لأحد لذاته ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته : ﴿**قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين**﴾ ..

هذا مأأمر الله به ، وهو يضاد ماهم عليه .. يضاد اتباعهم لآبائهم وللشرائع التى وضعها لهم عباد مثلهم ، مع دعواهم أن الله أمرهم بها .. ويضاد العرى والتكشف وقد امتن الله على بنى آدم بأنه أنزل عليهم لباساً يوارى سوآتهم وريشاً يتجملون به كذلك ..

ويضاد هذا الشرك الذى يزاولونه ، بازدواج مصادر التشريع لحياتهم ولعبادتهم ..

وعند هذا المقطع من البيان يجيء التذكير والإنذار ، ويلوّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ماهم فيه من أجل مرسوم للابتلاء ، وبمشهدهم فى العودة وهم فريقان : الفريق الذى اتبع أمر الله ، والفريق الذى اتبع أمر الشيطان : ﴿ **كما بدأكم تعودون : فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ ..

إنها لقطة واحدة عجيبة تجمع نقطة البدء فى الرحلة الكبرى ونقطة النهاية ، نقطة الانطلاق فى البدء ونقطة المآب فى الانتهاء : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ ..

وقد بدأوا الرحلة فريقين : آدم وزوجه ، والشيطان وقبيله .. وكذلك سيعودون .. الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء المسلمين المؤمنين بالله المتبعين لأمر الله .. والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله ، يملأ الله منهم جهنم ، بولائهم لإبليس وولايته لهم ، وهم يحسبون أنهم مهتدون .

لقد هدى الله من جعل ولايته لله ، وأضل من جعل ولايته للشيطان .. وهاهم أولاء عائدين فريقين : ﴿ **فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ ..

هاهم أولاء عائدين ، فى لمحة تضم طرفى الرحلة ، على طريقة القرآن ، التى يتعذر أن تتحقق فى غير أسلوب القرآن !

ثم يتكرر النداء إلى بنى آدم فى هذه الوقفة كذلك ، قبل أن يتابع السياق الرحلة المديدة ، فى الطريق المرسوم : ﴿ **يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ..** ﴾ ..

إنه التوكيد بعد التوكيد على الحقائق الأساسية للعقيدة ، فى مواجهة ماعليه المشركون العرب فى الجاهلية ، وذلك فى سياق النداء إلى بنى آدم كافة ، وفى مواجهة قصة البشرية الكبرى ..

إنه يناديهم أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذى أنزله الله عليهم ، وهو الرياش ، عند كل عبادة ، ومنها الطواف الذى يزاولونه عرايا ، ويحرمون اللباس الذى لم يحرمه الله ، بل أنعم

به على العباد ، فأولى أن يعبدوه بطاعته فيما أنزل لهم ، لا بخلعه ولا بالفحش الذى يزاولونه :

ومن عجيب ماروى من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ، ووجه إليهم هذا الاستنكار ماروا‌ه الكلبى قال : لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها .. فنزلت : **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ..﴾** ..

فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ، ناس يطوفون ببيت الله عرايا ، فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التى يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء فى الجنة : **﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾** .. فإذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين ، فى زينة الله التى أنعم بها على البشر ، لإرادته بهم الكرامة والستر ، ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الإنسانية فى سلامتها وجمالها الفطرى ، وليتميزوا عن العرى الحيوانى .. الجسمى والنفسى .. إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله فى زينة الله وفق فطرة الله عيروهم !!

إنه هكذا تصنع الجاهلية بالناس .. هكذا تمسخ فطرهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ! وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس فى هذا الأمر غير الذى فعلته بالناس فى جاهلية المشركين العرب ؟ وجاهلية المشركين الإغريق ؟ وجاهلية المشركين الرومان ؟ وجاهلية المشركين الفرس ؟ وجاهلية المشركين فى كل زمان وكل مكان ؟!

ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلّا أن تعريهم من اللباس ، وتعريهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدعو هذا رقياً وحضارة وتجديداً ، ثم تعير الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات ، بأنهن رجعيات .. تقليديات .. ريفيات !

المسخ هو المسخ ، والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس ، وانقلاب الموازين هو انقلاب الموازين ، والتبجح جهد ذلك هو التبجح .. **﴿أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون﴾** ..

وما الفرق كذلك فى علاقة هذا العرى ، وهذا الانتكاس ، وهذه البهيمية وهذا التبجح بالشرك وبالأرباب التى تشرع للناس من دون الله ؟

لئن كان مشركو العرب قد تلقوا فى شأن ذلك التعرى من الأرباب الأرضية التى كانت تستغل جهالتهم وتستخف بعقولهم ، لضمان السيادة لها فى الجزيرة .. ومثلهم بقية الجاهليات القديمة التى تلقت من الكهنة والسدنة والرؤساء .. فإن مشركى اليوم ومشركاته يتلقون فى هذا عن الأرباب الأرضية كذلك .. ولا يملكون لأمرهم رداً ..

إن بيوت الأزياء ومصمميها ، وأساتذة التجميل ودكاكينها ، لهى الأرباب التى تكمن وراء هذا الخبل الذى لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك ! إن هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم العارية فى أرجاء الأرض طاعة مزرية ! وسواء كان الزى الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسبه ، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح ، فهى تطيع صاغرة .. تطيع تلك الأرباب ، وإلا عيرت من بقية البهائم المغلوبة على أمرها !

ومن ذا الذى يقبع وراء بيوت الأزياء ؟ ووراء دكاكين التجميل ؟ ووراء سعار العرى والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص ، والمجلات والصحف ، التى تقود هذه الحملة المسعورة .. وبعضها يبلغ فى هذا إلى حد أن تصبح المجلة أو القصة ماخوراً متنقلًا للدعارة ؟ من الذى يقبع وراء هذا كله ؟

الذى يقبع وراء هذه الأجهزة كلها ، فى العالم كله .. يهود .

يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها ! ويبلغون أهدافهم كلها من إطلاق هذه الموجات المسعورة فى كل مكان .. أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار ، وإشاعة الانحلال النفسى والخلقى من ورائه ، وإفساد الفطرة البشرية ، وجعلها ألعوبة فى أيدى مصممى الأزياء والتجميل ! ثم تحقيق الأهداف الاقتصادية من وراء الإسراف فى استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة والتجميل وسائر الصناعات الكثيرة التى تقوم على هذا السعار وتغذيه !

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة .. ومن ثم ذلك الربط بينها وبين قضية الإيمان والشرك فى السياق . إنها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى :

إنها تتعلق قبل كل شيء بالربوبية ، وتحديد الجهة التى تشرع للناس فى هذه الأمور ، ذات التأثير العميق فى الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة .

كذلك تتعلق بإبراز خصائص الإنسان فى الجنس البشرى ، وتغليب الطابع الإنسانى فى هذا الجنس على الطابع الحيوانى .

والجاهلية تمسخ التصورات والأذواق والقيم والأخلاق ، وتجعل العرى الحيوانى تقدماً ورقياً ، والستر الإنسانى تأخراً ورجعية ! وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون : مالدين والزى ؟ مالدين وملابس النساء ؟ مالدين والتجميل ؟ إنه المسخ الذى يصيب الناس فى الجاهلية فى كل زمان وفى كل مكان !!

التحذير من اتباع خطوات الشيطان

قال تعالى :

﴿ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالًا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ [البقرة :١٦٨ – ١٦٩] .

لما بين الله سبحانه أنه الإله الواحد ، وأنه الخالق الواحد – فى الفقرات السابقة – وأن الذين يتخذون من دون الله أنداداً سينالهم ماينالهم .. شرع يبين هنا أنه الرازق لعباده ، وأنه هو الذى يشرع لهم الحلال والحرام .. وهذا فرع عن وحدانية الألوهية كما أسلفنا ، فالجهة التى تخلق وترزق هى التى تشرع فتحرم وتحلل ، وهكذا يرتبط التشريع بالعقيدة بلا فكاك .

وهنا يبيح الله للناس جميعاً أن يأكلوا مما رزقهم فى الأرض حلالًا طيباً – إلّا ماشرع لهم حرمته وهو المبين فيما بعد – وأن يتلقوا منه هو الأمر فى الحل والحرمة ، وألّا يتبعوا الشيطان فى شىء من هذا ، لأنه عدوهم ، ومن ثم فهو لا يأمرهم بخير ، إنما يأمرهم بالسوء من التصور والفعل ، ويأمرهم بأن يحللوا ويحرموا من عند أنفسهم ، دون أمر من الله ، مع الزعم بأن هذا الذى يقولونه هو شريعة الله .. كما كان اليهود مثلًا يصنعون ، وكما كان مشركو قريش يدعون .

وهذا الأمر بالإباحة والحل لما فى الأرض – إلّا المحظور القليل الذى ينص عليه القرآن نصاً – يمثل طلاقة هذه العقيدة ، وتجاوبها مع فطرة الكون وفطرة الناس ، فالله خلق مافى الأرض للإنسان ، ومن ثم جعله له حلالًا ، لا يقيده إلّا أمر خاص بالحظر ، وإلّا تجاوز دائرة الاعتدال والقصد ، ولكن الأمر فى عمومه أمر طلاقة واستمتاع بطيبات الحياة ، واستجابة للفطرة بلا كزازة ولا حرج ولا تضييق .. كل أولئك بشرط واحد ، هو أن يتلقى الناس مايحل لهم ومايحرم عليهم من الجهة التى ترزقهم هذا الرزق ، لا من إيحاء الشيطان الذى لا يوحى بخير لأنه عدو للناس بيِّن العداوة ، لا يأمرهم إلّا بالسوء

والفحشاء ، وإلّا بالتجديف على الله ، والافتراء عليه ، دون تثبت ولا يقين !

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافةً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان ، بهذا الوصف المحبب إليهم ، والذى يميزهم ويفردهم ، ويصلهم بالله الذى يدعوهم .. دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا فى السلم كافة ..

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله ، فى ذوات أنفسهم ، وفى الصغير والكبير من أمرهم ، أن يستسلموا الاستسلام الذى لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور ، ومن نية أو عمل ، ومن رغبة أو رهبة ، لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه وقضاه ، استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية ، الاستسلام لليد التى تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد ، وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير ، فى الدنيا والآخرة سواء .

وتوجيه هذه الدعوة إلى الذين آمنوا إذ ذاك تشى بأنه كانت هنالك نفوس ماتزال يثور فيها بعض التردد فى الطاعة المطلقة فى السر والعلن ، وهو أمر طبيعى أن يوجد فى الجماعة إلى جانب النفوس المطمئنة الواثقة الراضية .. وهى دعوة توجه فى كل حين للذين آمنوا ليخلصوا ويتجردوا ، وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع مايريد الله بهم ، ومايقودهم إليه نبيهم ودينهم ، فى غير ماتلجلج ولا تردد ولا تلفت .

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل فى عالم كله سلم وكله سلام ، عالم كله ثقة واطمئنان ، وكله رضى واستقرار ، لا حيرة ولا قلق ، ولا شرود ولا ضلال ، سلام مع النفس والضمير ، سلام مع العقل والمنطق ، سلام مع الناس والأحياء ، سلام مع الوجود كله ومع كل موجود ، سلام يرف فى حنايا السريرة ، وسلام يظلل الحياة والمجتمع ، سلام فى الأرض وسلام فى السماء .

وأول مايفيض هذا السلام على القلب يفيض من صحة تصوره لله ربه ، ونصاعة هذا التصور وبساطته ..

إنه إله واحد ، يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه ، فلا تتفرق به السبل ، ولا تتعدد به القبل ، ولا يطارده إله من هنا وإله من هناك — كما كان فى الوثنية والجاهلية — إنما هو إله واحد يتجه إليه فى ثقة وفى طمأنينة وفى نصاعة وفى وضوح .

وهو إله قوى قادر عزيز قاهر .. فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقة الوحيدة فى هذا الوجود ، وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح ، ولم يعد يخاف أحداً أو يخاف شيئاً ، وهو يعبد الله القوى القادر العزيز القاهر ، ولم يعد يخشى فوت شيء ، ولا يطمع فى غير من يقدر على الحرمان والعطاء .

وهو إله عادل حكيم ، فقوته وقدرته ضمان من الظلم ، وضمان من الهوى ، وضمان من البخس ، وليس كآلهة الوثنية والجاهلية ذوات النزوات والشهوات ، ومن ثم يأوى المسلم من إلهه إلى ركن شديد ، ينال فيه العدل والرعاية والأمان .

وهو رب رحيم ودود منعم وهاب ، غافر الذنب وقابل التوب ، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، فالمسلم فى كنفه آمن آنس ، سالم غانم ، مرحوم إذا ضعف ، مغفور له متى تاب ...

وهكذا يمضى المسلم مع صفات ربه التى يعرفه بها الإسلام ، فيجد فى كل صفة مايؤنس قلبه ، ومايطمئن روحه ، ومايضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام ..

كذلك يفيض السلام على قلب المسلم من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب ، وبين الخالق والكون ، وبين الكون والإنسان .. فالله خلق هذا الكون بالحق ، وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة ، وهذا الإنسان مخلوق قصداً ، وغير متروك سدى ، ومهيأ له كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده ، ومسخر له مافى الأرض جميعاً ، وهو كريم على الله ، وهو خليفته فى أرضه ، والله معينه على هذه الخلافة ، والكون من حوله صديق مأنوس ، تتجاوب روحه مع روحه ، حين يتجه كلاهما إلى الله ربه ، وهو مدعو إلى هذا المهرجان الإلهى المقام فى السماوات والأرض ليتملاه ويأنس به ، وهو مدعو للتعاطف مع كل شيء ومع كل حى فى هذا الوجود الكبير ، الذى يعج بالأصدقاء المدعوين مثله إلى ذلك

المهرجان والذين يؤلفون كلهم هذا المهرجان !

والعقيدة التى تقف صاحبها أمام النبتة الصغيرة ، وهى توحى إليه أن له أجراً حين يرويها من عطش ، وحين يعينها على النماء ، وحين يزيل من طريقها العقبات .. هى عقيدة جميلة فوق أنها عقيدة كريمة ، عقيدة تسكب فى روحه السلام .. وتطلقه يعانق الوجود كله ويعانق كل موجود ، ويشيع من حوله الأمن والرفق ، والحب والسلام .

والاعتقاد بالآخرة يؤدى دوره الأساسى فى إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ، ونفى القلق والسخط والقنوط .. إن الحساب الختامى ليس فى هذه الأرض ، والجزاء الأوفى ليس فى هذه العاجلة .. إن الحساب الختامى هناك والعدالة المطلقة مضمونة فى هذا الحساب ، فلا ندم على الخير والجهاد فى سبيله إذا لم يتحقق فى الأرض أو لم يلق جزاءه ، ولا قلق على الأجر إذا لم يوف فى هذه العاجلة بمقاييس الناس ، فسوف يوفاه بميزان الله ، ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ فى الرحلة القصيرة على غير مايريد ، فالعدل لابد واقع ، وما الله يريد ظلماً للعباد .

والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذى تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات ، بلا تحرج ولا حياء ، فهناك الآخرة فيها عطاء ، وفيها غناء ، وفيها عوض عما يفوت ، وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة ، وأن يخلع التجمل على حركات المتسابقين ، وأن يخفف السعار الذى ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هى فرصة هذا العمر القصير المحدود !

ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنسانى هى العبادة ، وأنه مخلوق ليعبد الله .. من شأنها – ولا شك – أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضىء ، ترفع شعوره وضميره ، وترفع نشاطه وعمله ، وتنظف وسائله وأدواته ، فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله ، وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه ، وهو يريد العبادة بالخلافة فى الأرض وتحقيق منهج الله فيها ، فأولى به ألا يغدر ولا يفجر ، وأولى به ألا يغش ولا يخدع ، وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر ، وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة ، وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل ، وألا يعتسف الطريق ، وألا يركب الصعب من الأمور ، فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية

الخالصة والعمل الدائب فى حدود الطاقة .. ومن شأن هذا كله ألا تثور فى نفسه المخاوف والمطامع ، وألا يستبد به القلق فى أية مرحلة من مراحل الطريق ، فهو يعبد فى كل خطوة ، وهو يحقق غاية وجوده فى كل خطوة ، وهو يرتقى صعداً إلى الله فى كل نشاط وفى كل مجال .

وشعور المؤمن بأنه يمضى مع قدر الله ، فى طاعة الله ، لتحقيق إرادة الله .. ومايسكبه هذا الشعور فى روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار والمضى بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق ، وبلا قنوط من عون الله ومدده ، وبلا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء .. ومن ثم يحس بالسلام فى روحه حتى وهو يقاتل أعداء الله وأعداءه ، فهو إنما يقاتل لله ، ولإعلاء كلمة الله ، ولا يقاتل لجاه أو مغنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة .

كذلك شعوره بأنه يمضى على سنة الله مع هذا الكون كله ، قانونه قانونه ، ووجهته وجهته ، فلا صدام ولا خصام ، ولا تبديد للجهد ولا بعثرة للطاقة ، وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته ، وتهتدى بالنور الذى يهتدى به ، وتتجه إلى الله وهو معها يتجه إلى الله .

والتكاليف التى يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة . لاتتجاوز الطاقة ، ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ، ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ، ولاتنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثمانى والروحى لا تلبيها فى يسر وفى سماحة وفى رخاء .. ومن ثم لا يحار ولا يقلق فى مواجهة تكاليفه ، يحمل منها مايطيق حمله ، ويمضى فى الطريق إلى الله فى طمأنينة وروح وسلام .

والمجتمع الذى ينشئه هذا المنهج الربانى ، فى ظل النظام الذى ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة ، والضمانات التى يحيط بها النفس والعرض والمال .. كلها مما يشيع السلم وينشر روح السلام .

هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق ، هذا المجتمع الذى حققه الإسلام مرة فى أرقى وأصفى صوره ، ثم يظل يحققه فى صور شتى على توالى الحقب ، تختلف درجة صفائه ، ولكنه يظل فى جملته خيراً من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية فى

الماضى والحاضر ، وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية !

هذا المجتمع الذى تربطه آصرة واحدة – آصرة العقيدة – حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان ، واللغات والألوان ، وسائر هذه الأواصر العرضية التى لا علاقة لها بجوهر الإنسان ...

هذا المجتمع الذى يسمع الله يقول له : ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ .. والذى يرى صورته فى قول النبى الكريم : «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» [1] .

هذا المجتمع الذى من آدابه : ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾ .. ﴿**ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور**﴾ .. ﴿**ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم**﴾ .. ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾ .. ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾ ...

هذا المجتمع الذى من ضماناته : ﴿**ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين**﴾ .. ﴿**ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا**﴾ .. ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير**

---

(١) – أخرجه فى «شرح السنة» ١٣/٤٦ ، و «الإتحاف» ٦/٢٥٣ ، و «الصحيحة» (١٠٨٣) .

وأخرجه بدون كلمة «وتعاطفهم» الإمام مسلم (البر والصلة) ٦٦ ، وأحمد ٤/٢٧٠ ، والبيهقى ٣/٣٥٣ ، و «الإتحاف» ١/٣٣٣ و ٦/٢٥٣ ، و «الكنز» (٧٣٧) ، والقرطبى ٨/٢٢٧ ، وابن كثير ٤/١١٥ و ٧/٣٥٥ ، و «المغنى عن حمل الأسفار» ٢/١٩١ والشجرى فى أماليه ٢/١٣٥ و ١٥١ و «مسند أبى حنيفة» (١٦٧) ، والربيع ابن حبيب ٢/١٧ .

بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ .. و «كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله» [1]

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذى لا تشيع فيه الفاحشة ، ولا يتبجح فيه الإغراء ، ولا تروج فيه الفتنة ، ولا ينتشر فيه التبرج ، ولا تتلفت فيه الأعين على العورات ، ولا ترف فيه الشهوات على الحرمات ، ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق فى المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً .. هذا المجتمع الذى تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة ، والذى يسمع الله سبحانه يقول : **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .. ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ .. ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ .. ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن ، أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾** .. والذى يخاطب فيه نساء النبى ـــ أطهر نساء الأرض فى أطهر بيت فى أطهر بيئة فى أطهر زمان : **﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين**

(١) – أخرجه الإمام أحمد ٢/٢٧٧ و ٣٦٠ ، ومسلم (البر والصلة) ب ١٠ رقم ٣٢ ، وأبو داود (٤٨٨٢) والترمذى (١٩٢٧) ، وابن ماجه (٣٩٣٣) ، و «الإتحاف» ٦/٢١٤ و ٢١٩ و ٧/٥٣٢ و ٥٣٣ ، وابن كثير ٧/٣٦٠ ، والقرطبى ١٠/١٨٧ و ١٦/٣٢٢ .

الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ ..

وفى مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها ، ويأمن الزوج على زوجته ، ويأمن الأولياء على حرماتهم وأعراضهم ، ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم ، حيث لا تقع العيون على المفاتن ، ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم ، فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب .. بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن ، ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان !

وأخيراً إنه ذلك المجتمع الذى يكفل لكل قادر عملاً ورزقاً ، ولكل عاجز ضمانة للعيش الكريم ، ولكل راغب فى العفة والحصانة زوجة صالحة ، والذى يعتبر أهل كل حى مسئولين مسئولية جنائية لو مات فيهم جائع ، حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية .

والمجتمع الذى تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع ، بعد كفالتها بالتوجيه الربانى المطاع ، فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة ، ولا يتسور على أحد بيته ، ولا يتجسس على أحد فيه متجسس ، ولا يذهب فيه دم هدراً والقصاص حاضر ، ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهباً والحدود حاضرة .

المجتمع الذى يقوم على الشورى والنصح والتعاون ، كما يقوم على المساواة والعدالة الصارمة التى يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شريعة الله لا بإرادة حاكم ، ولا هوى حاشية ، ولا قرابة كبيرة . .

وفى النهاية المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية ، الذى لا يخضع البشر فيه للبشر ، إنما يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشريعته ، وينفذون حاكمين ومحكومين حكم الله وشريعته ، فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمام الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، فى طمأنينة وفى ثقة وفى يقين ..

هذه كلها بعض معانى السلم الذى تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنوا للدخول فيه كافة ، ليسلموا أنفسهم كلها لله ، فلا يعود لهم منها شيء ، ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ ، إنما تعود كلها لله فى طواعية وفى انقياد وفى تسليم ..

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعربد القلق فى النفوس التى لا تطمئن بالإيمان ، فى المجتمعات التى لا تعرف الإسلام ، أو التى عرفته ثم تنكرت له ، وارتدت إلى الجاهلية ، تحت عنوان من شتى العنوانات فى جميع الأزمان .. هذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ماقد يتوافر لها من الرخاء المادى والتقدم الحضارى ، وسائر مقومات الرقى فى عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلة الموازين .

وحسبنا مثل واحد مما يقع فى بلد أوربى من أرقى بلاد العالم كله وهو السويد ، حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومى مايساوى خمسمائة جنيه فى العام ، وحيث يستحق كل فرد نصيبه من التأمين الصحى وإعانات المرض التى تصرف نقداً والعلاج المجانى فى المستشفيات ، وحيث التعليم فى جميع مراحله بالمجان ، مع تقديم إعانات ملابس وقروض للطلبة المتفوقين ، وحيث تقدم الدولة حوالى ثلاثمائة جنيه إعانة زواج لتأثيث البيوت .. وحيث وحيث من ذلك الرخاء المادى والحضارى العجيب ..

ولكن ماذا ؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادى والحضارى وخلو القلوب من الإيمان بالله ؟

إنه شعب مهدد بالانقراض ، فالنسل فى تناقص مطرد بسبب فوضى الاختلاط ! والطلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتبرج الفتن وحرية الاختلاط ! والجيل الجديد ينحرف فيدمن المسكرات والمخدرات ، ليعوض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة ، والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الألوف من النفوس والأرواح والأعصاب .. ثم الانتحار والحال كهذا فى أمريكا .. والحال أشنع من هذا فى روسيا ...

إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة ، فلا يذوق طعم السلم الذى يدعى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة ، ولينعموا فيه بالأمن والظل والراحة والقرار : **﴿يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة .. ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾** ..

ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا فى السلم كافة .. حذرهم أن يتبعوا خطوات

الشيطان ، فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان ، إما الدخول فى السلم كافة ، وإما اتباع خطوات الشيطان ، إما هدى وإما ضلال ، إما إسلام وإما جاهلية ، إما طريق الله وإما طريق الشيطان ، وإما هدى الله وإما غواية الشيطان .. وبمثل هذا الحسم ينبغى أن يدرك المسلم موقفه ، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات .

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحداً منها ، أو يخلط واحداً منها بواحد .. كلا ، إنه من لا يدخل فى السلم بكليته ، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته ، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر .. إن هذا فى سبيل الشيطان ، سائر على خطوات الشيطان ..

ليس هنالك حل وسط ، ولا منهج بين بين ، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك ! إنما هناك حق وباطل ، هدى وضلال ، إسلام وجاهلية ، منهج الله أو غواية الشيطان ، والله يدعو المؤمنين فى الأولى إلى الدخول فى السلم كافة ، ويحذرهم فى الثانية من اتباع خطوات الشيطان ، ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم ، ويستثير مخاوفهم بتذكيرهم بعداوة الشيطان لهم ، تلك العداوة الواضحة البينة ، التى لا ينساها إلا غافل ، والغفلة لا تكون مع الإيمان .

ثم يخوفهم عاقبة الزلل بعد البيان : ﴿ **فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ وتذكيرهم بأن الله عزيز يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة ، وأنهم يتعرضون لقوة الله حين يخالفون عن توجيهه ..

وقال تعالى : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .. [الأنعام : ١٤١ - ١٤٢] .

إن الله سبحانه هو الذى خلق هذه الجنات ابتداء - فهو الذى أخرج الحياة من الموات - وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التى يتعهدها الإنسان بالعرائش والحوائط ، ومنها البريات التى تنبت بذاتها - بقدر الله - وتنمو بلا مساعدة من الإنسان

ولا تنظيم ، وإن الله هو الذى أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال ، وإن الله هو الذى خلق الزيتون والرمان ، منوع الصنوف متشابهاً وغير متشابه ، وإنه سبحانه هو الذى خلق هذه الأنعام وجعل منها حمولة عالية القوائم بعيدة عن الأرض حمالة للأثقال ، وجعل منها فرشاً صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش ..

إنه هو سبحانه الذى بث الحياة فى هذه الأرض ، ونوّعها هذا التنويع ، وجعلها مناسبة للوظائف التى تتطلبها حياة الناس فى الأرض .. فكيف يذهب الناس فى مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق إلى تحكيم غير الله فى شأن الزروع والأنعام والأموال ؟

وعندما يذكر الأنعام يقول : ﴿ **كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

ذلك ليذكرهم أن هذا رزق الله وخلقه ، والشيطان لم يخلق شيئاً ، فما بالهم يتبعونه فى رزق الله ؟ ثم ليذكرهم أن الشيطان لهم عدو مبين ، فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين ؟

وقال تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم** ﴾ [النور : ٢١] .

إنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه ، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقاً غير طريقه المشؤوم ! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن ، ويرتجف لها وجدانه ، ويقشعر لها خياله ! ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير فى نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية : ﴿ **ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر** ﴾ .. وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذى قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه .. وهو نموذج منفر شنيع .

وإن الإنسان لضعيف ، معرض للنزغات ، عرضة للتلوث ، إلا أن يدركه فضل الله ورحمته حين يتجه إلى الله ويسير على نهجه .

الشـــــيطان يعـــــدكم الفقـــــر

قال تعالى : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلًا والله واسع عليم﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

لما كان الكف عن الإنفاق ، أو التقدم بالرديء الخبيث ، إنما ينشأ عن دوافع السوء ، وعن تزعزع اليقين فيما عند الله ، وعن الخوف من الإملاق الذى لا يساور نفساً تتصل بالله ، وتعتمد عليه ، وتدرك أن مرد ماعندها إليه .. كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدو لهم عارية ، وليعرفوا من أين تنبت النفوس ، وماالذى يثيرها فى القلوب .. إنه الشيطان ..

الشيطان يخوفكم الفقر ، فيثير فى نفوسكم الحرص والشح والتكالب ، والشيطان يأمركم بالفحشاء – والفحشاء كل معصية تفحش أى تتجاوز الحد ، وإن كانت قد غلبت على نوع معين من المعاصى ولكنها شاملة ، وخوف الفقر كان يدعو القوم فى جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة ، والحرص على جمع الثروة كان يؤدى ببعضهم إلى أكل الربا وهو فاحشة .. على أن خوف الفقر بسبب الإنفاق فى سبيل الله فى ذاته فاحشة ..

وحين يعدكم الشيطان الفقر ويأمركم بالفحشاء يعدكم الله المغفرة والعطاء :
﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا﴾ ..

ويقدم المغفرة ، ويؤخر الفضل .. فالفضل زيادة فوق المغفرة ، وهو يشمل كذلك عطاء الرزق فى هذه الأرض ، جزاء البذل فى سبيل الله والإنفاق . ﴿والله واسع عليم﴾..

تخبـــط الشـــيطان

قال تعالى :

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلـف وأمـره إلى الله ومـن عاد فأولـئك أصحـاب النـاس هم فيها خالدون﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

لم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية مابلغ من تفظيع الربا ، ولا بلغ من التهديد فى اللفظ والمعنى مابلغ التهديد فى أمر الربا - فى هذه الآيات وفى غيرها فى مواضع أخرى - ولله الحكمة البالغة ، فلقد كانت للربا فى الجاهلية مفاسده وشروره ، ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ماكانت كلها بادية فى مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت فى عالمنا الحاضر ، ولا كانت البثور والدمامل فى ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم فى مجتمعنا الحديث ، فهذه الحملة المفزعة البادية فى هذه الآيات على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع فى حياة البشرية ، أشد مما كانت متكشفة فى الجاهلية الأولى ، ويدرك - من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام - يدرك اليوم من هذا كله مالم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة ، وأمامه اليوم من واقع العالم مايصدّق كل كلمة تصديقاً حياً مباشراً واقعاً ، والبشرية الضالة التى تأكل الربا وتوكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوى ، فى أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها ، وتتلقى - حقاً - حرباً من الله تصب عليها النقمة والعذاب .. أفراداً وجماعات ، وأمماً وشعوباً ، وهى لا تعتبر ولا تفيق !

وحينما كان السياق يعرض فى الدرس السابق دستور الصدقة كان يعرض قاعدة من قواعد النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى يريد الله للمجتمع المسلم أن يقوم عليه ، ويحب للبشرية أن تستمتع بما فيه من رحمة .. فى مقابل ذلك النظام الآخر الذى يقوم على الأساس الربوى الشرير القاسى اللئيم .

إنهما نظامان متقابلان : النظام الإسلامى ، والنظام الربوى ! وهما لا يلتقيان فى تصور ، ولا يتفقان فى أساس ، ولا يتوافقان فى نتيجة .. إن كلًا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة ، وينتهى إلى ثمرة فى حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف .. ومن ثم كانت هذه الحملة المفزعة ، وكان هذا التهديد الرعيب !

إن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادى – ونظام الحياة كلها – على تصور معين يمثل الحق الواقع فى هذا الوجود ، يقيمه على أساس أن الله سبحانه هو خالق هذا الكون ، فهو خالق هذه الأرض ، وهو خالق هذا الإنسان .. هو الذى وهب كل موجود وجوده ..

وأن الله سبحانه وهو مالك كل موجود بما أنه هو موجده قد استخلف الجنس الإنسانى فى هذه الأرض ، ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق ومن أقوات ومن قوى وطاقات ، على عهد منه وشرط ، ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى ، يصنع فيه مايشاء كيف شاء ، وإنما استخلفه فيه فى إطار من الحدود الواضحة ، استخلفه فيه على شرط أن يقوم فى الخلافة وفق منهج الله ، وحسب شريعته ، فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفق التعاقد فهو صحيح نافذ ، وماوقع منه مخالفاً لشروط التعاقد فهو باطل موقوف ، فإذا أنفذه قوة وقسراً فهو إذن ظلم واعتداء لا يقره الله ولا يقره المؤمنون بالله ، فالحاكمية فى الأرض – كما هى فى الكون كله – لله وحده ، والناس حاكمهم ومحكومهم إنما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه ، وليس لهم – فى جملتهم – أن يخرجوا عنها ، لأنهم إنما هم وكلاء مستخلفون فى الأرض بشرط وعهد وليسوا ملاكاً خالقين لما فى أيديهم من أرزاق .

من بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله ، فيكون بعضهم أولياء بعض ، وأن ينتفعوا برزق الله الذى أعطاهم على أساس هذا التكافل – لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية ، ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة – فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قدر عليه رزقه ، مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته واستعداده وفيما يسره الله له – فلا يكون أحدهم كلًا على أخيه أو على

الجماعة وهو قادر كما بينا ذلك من قبل ، وجعل الزكاة فريضة فى المال محددة ، والصدقة تطوعاً غير محدد .

وقد شرط عليهم كذلك أن يلتزموا جانب القصد والاعتدال ، ويتجنبوا السرف والشطط فيما ينفقون من رزق الله الذى أعطاهم ، وفيما يستمتعون به من الطيبات التى أحلها لهم ، ومن ثم تظل حاجتهم الاستهلاكية للمال والطيبات محدودة بحدود الاعتدال ، وتظل فضلة من الرزق معرضة لفريضة الزكاة وتطوع الصدقة ، وبخاصة أن المؤمن مطالب بتثمير ماله وتكثيره .

وشرط عليهم أن يلتزموا فى تنمية أموالهم وسائل لا ينشأ عنها الأذى للآخرين ، ولا يكون من جرائها تعويق أو تعطيل لجريان الأرزاق بين العباد ، ودوران المال فى الأيدى على أوسع نطاق : ﴿**كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ ..

وكتب عليهم الطهارة فى النية والعمل ، والنظافة فى الوسيلة والغاية ، وفرض عليهم قيوداً فى تنمية المال لا تجعلهم يسلكون إليها سبلاً تؤذى ضمير الفرد وخلقه ، أو تؤذى حياة الجماعة وكيانها ..

وأقام هذا كله على أساس التصور الممثل لحقيقة الواقع فى هذا الوجود ، وعلى أساس عهد الاستخلاف الذى يحكم كل تصرفات الإنسان المستخلف فى هذا الملك العريض ..

ومن ثم فالربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيمانى إطلاقاً ، ونظام يقوم على تصور آخر ، تصور لا نظر فيه لله سبحانه وتعالى ، ومن ثم لا رعاية فيه للمبادىء والغايات والأخلاق التى يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها ..

إنه يقوم ابتداء على أساس أن لا علاقة بين إرادة الله وحياة البشر ، فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء ، وهو غير مقيد بعهد من الله ، وغير ملزم باتباع أوامر الله !

ثم إن الفرد حر فى وسائل حصوله على المال ، وفى طرق تنميته ، كما هو حر فى التمتع به ، غير ملتزم فى شىء من هذا بعهد من الله أو شرط ، وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين ، ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزانته ورصيده مايستطيع إضافته ، وقد تتدخل القوانين الوضعية أحياناً فى الحد من حريته هذه — جزئياً — فى تحديد سعر

الفائدة مثلًا ، وفى منع أنواع من الاحتيال والنصب والغصب والنهب ، والغش والضرر ، ولكن هذا التدخل يعود إلى مايتواضع عليه الناس أنفسهم ، وماتقودهم إليه أهواؤهم ، لا إلى مبدأ ثابت مفروض من سلطة إلهية !

كذلك يقوم على أساس تصور خاطىء فاسد ، هو أن غاية الغايات للوجود الإنسانى هى تحصيله للمال – بأية وسيلة – واستمتاعه به على النحو الذى يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به ، ويدوس فى الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين !

ثم ينشىء فى النهاية نظاماً يسحق البشرية سحقاً ، ويشقيها فى حياتها أفراداً وجماعات ودولًا وشعوباً ، لمصلحة حفنة من المرابين ، ويحطها أخلاقياً ونفسياً وعصبياً ، ويحدث الخلل فى دورة المال ونمو الاقتصاد البشرى نمواً سوياً .. وينتهى – كما انتهى فى العصر الحديث – إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملى على البشرية كلها فى أيدى زمرة من أحط خلق الله وأشدهم شراً ، وشرذمة ممن لا يرعون فى البشرية إلًّا ولا ذمة ، ولا يراقبون فيها عهداً ولا حرمة .. وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفراداً ، كما يداينون الحكومات والشعوب – فى داخل بلادهم وفى خارجها – وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها ، وكد الآدميين وعرقهم ودمائهم ، فى صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهداً !

وهم لا يملكون المال وحده .. إنما يملكون النفوذ .. ولما لم تكن لهم مبادىء ولا أخلاق ولا تصور دينى أو أخلاق على الإطلاق ، بل لما كانوا يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمثل والمبادىء ، فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذى يملكونه فى إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التى تمكنهم من زيادة الاستغلال ، ولاتقف فى طريق جشعهم وخسة أهدافهم .. وأقرب الوسائل هى تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها فى مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات ، التى يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه ، حيث تسقط الفلوس فى المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم فى جريان الاقتصاد العالمى وفق مصالحهم المحدودة ، مهما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة فى عالم الاقتصاد ، وإلى انحراف الإنتاج الصناعى والاقتصادى كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرابين ، الذين تتجمع فى أيديهم خيوط الثروة العالمية !

والكارثة التى تمت فى العصر الحديث – ولم تكن بهذه الصورة البشعة فى الجاهلية – هى أن هؤلاء المرابين – الذين كانوا يتمثلون فى الزمن الماضى فى صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن فى صورة مؤسسى المصارف العصرية – قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وربما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام فى الأرض كلها .. سواء فى ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها .. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم فى ظل النظام الربوى .. هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعى المعقول ، والأساس الصحيح الذى لا أساس غيره للنمو الاقتصادى ، وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضارى فى الغرب ، وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من الخياليين – غير العمليين – وأنهم إنما يعتمدون فى نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثل خيالية لا رصيد لها من الواقع ، وهى كفيلة بإفساد النظام الاقتصادى كله لو سمح لها أن تتدخل فيه ! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوى من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم فى حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمى نفسه ، الذى تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجرى جرياناً غير طبيعى ولا سوى ، ويتعرض للهزات الدورية المنظمة ! وينحرف عن أن يكون نافعاً للبشرية كلها ، إلى أن يكون وقفاً على حفنة من الذئاب قليلة !

إن النظام الربوى نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة – وقد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ، وهم قد نشأوا فى ظله ، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التى تبثها عصابات المال فى كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق ، وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة « دكتور شاخت » الألمانى ومدير بنك الرايخ الألمانى سابقاً ، وقد كان مما قاله فى محاضرة له بدمشق عام ١٩٥٣ أنه بعملية رياضية « غير متناهية » يتضح أن جميع المال فى الأرض صائر إلى عدد قليل جداً من المرابين ، ذلك أن الدائن المرابى يربح دائماً فى كل عملية ، بينما المدين معرض للربح والخسارة ، ومن ثم فإن المال كله فى النهاية لابد – بالحساب الرياضى – أن يصير إلى

الذى يربح دائماً ! وأن هذه النظرية فى طريقها للتحقق الكامل ، فإن معظم مال الأرض الآن يملكه – ملكاً حقيقياً – بضعة ألوف ! أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك ، والعمال وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجنى ثمرة كدهم أولئك الألوف !

وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة ، فإن قيام النظام الاقتصادى على الأساس الربوى يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين فى التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة ، فإن المرابى يجتهد فى الحصول على أكبر فائدة ، ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة ، ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون فى التجارة والصناعة أنه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لا يدر عليهم مايوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شىء .. عندئذ ينكمش حجم المال المستخدم فى هذه المجالات التى تشتغل فيها الملايين ، وتضيق المصانع دائرة إنتاجها ، ويتعطل العمال ، فتقل القدرة على الشراء ، وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ، ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف ، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطراراً فيقبل عليه العاملون فى الصناعة والتجارة من جديد ، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء .. وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية ، ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة !

ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين ، فإن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التى يقترضونها بالربا إلّا من جيوب المستهلكين ، فهم يزيدونها فى أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل فى جيوب المرابين فى النهاية ، أما الديون التى تقترضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية كذلك ، إذ أن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها ، وبذلك يشترك كل فرد فى دفع هذه الجزية للمرابين فى نهاية المطاف .. وقلما ينتهى الأمر عند هذا الحد ، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون .. ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار !

ونحن هنا – فى ظلال القرآن – لا نستقصى كل عيوب النظام الربوى فهذا مجاله بحث

بتسلسل - فنكتفى بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى جملة حقائق أساسية بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوى المقيت :

الحقيقة الأولى :

أنه لا إسلام مع قيام نظام ربوى فى مكان ، وكل مايمكن أن يقوله أصحاب الفتاوى من رجال الدين أو غيرهم سوى هذا دجل وخداع ، فأساس التصور الإسلامى - كما بينا - يصطدم اصطداماً مباشراً بالنظام الربوى ، ونتائجه العملية فى حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم .

الحقيقة الثانية :

أن النظام الربوى بلاء على الإنسانية - لا فى إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب - بل كذلك فى صميم حياتها الاقتصادية والعملية ، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشرية محقاً ، ويعطل نموها الإنسانى المتوازن ، على الرغم من الطلاء الظاهرى الخدّاع ، الذى يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادى العام !

الحقيقة الثالثة :

أن النظام الأخلاقى والنظام العملى فى الإسلامى مترابطان تماماً ، وأن الإنسان فى كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه ، وأنه مختبر ومبتلى وممتحن فى كل نشاط يقوم به فى حياته ، ومحاسب عليه فى آخرته ، فليس هناك نظام أخلاقى وحده ونظام عملى وحده ، وإنما هما معاً يؤلفان نشاط الإنسان ، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن ، وإثم يؤاخذ عليه إن أساء ، وأن الاقتصاد الإسلامى الناجح لا يقوم بغير أخلاق ، وأن الأخلاق ليست نافلة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية .

الحقيقة الرابعة :

أن التعامل الربوى لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخُلقه ، وشعوره تجاه أخيه فى الجماعة ، وإلّا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة ، أما فى العصر الحديث فإنه يعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحط وجوه الاستثمار ، كى يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحاً مضموناً ، فيؤدى الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين ، ومن ثم فهو الدافع المباشر

لاستثمار المال فى الأفلام القذرة والصحافة القذرة والمراقص والملاهى والرقيق الأبيض وسائر الحرف والاتجاهات التى تحطم أخلاق البشرية تحطيماً .. والمال المستدان بالربا ليس همه أن ينشىء أنفع المشروعات للبشرية ، بل همه أن ينشىء أكثرها ربحاً ، ولو كان الربح إنما يجىء من استثارة أحط الغرائز وأقذر الميول .. وهذا هو المشاهد اليوم فى أنحاء الأرض ، وسببه الأول هو التعامل الربوى !

الحقيقة الخامسة :

أن الإسلام نظام متكامل ، فهو حين يحرم التعامل الربوى يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه ، وينظم جوانب الحياة الاجتماعية بحيث تنتفى منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل ، بدون مساس بالنمو الاقتصادى والاجتماعى والإنسانى المطرد .

الحقيقة السادسة :

إن الإسلام — حين يتاح له أن ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص — لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوى ، إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعى السليم ، ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه ، ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة ، وفى أول هذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات وماإليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث ..

الحقيقة السابعة :

وهى الأهم .. ضرورة اعتقاد من يريد أن يكون مسلماً ، بأن هناك استحالة اعتقادية فى أن يحرم الله أمراً لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه ! كما أن هناك استحالة اعتقادية كذلك فى أن يكون هناك أمر خبيث ويكون فى الوقت ذاته حتمياً لقيام الحياة وتقدمها .. فالله سبحانه هو خالق هذه الحياة ، وهو مستخلف الإنسان فيها ، وهو الآمر بتنميتها وترقيتها،وهو المريد لهذا كله الموفق إليه ، فهناك استحالة إذن فى تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله شىء لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه ، وأن يكون هناك شىء خبيث هو حتمى لقيام الحياة ورقيها ، وإنما هو سوء التصور ، وسوء الفهم والدعاية المسمومة الخبيثة الطاغية التى دأبت أجيالًا على بث فكرة : أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادى والعمرانى ، وأن النظام الربوى هو النظام الطبيعى ، وهى صعوبة تنشأ أولًا من عدم الإيمان ، كما تنشأ

ثانياً من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذى اجتهد المرابون فى بثه وتمكينه بما لهم من قدرة على التوجيه ...

الحقيقة الثامنة :

أن استحالة قيام الاقتصاد العالمى اليوم وغداً على أساس غير الأساس الربوى .. ليست سوى خرافة ، أو هى أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التى يستخدمها أصحاب المصلحة فى بقائها أجهزة ضخمة فعلًا ! وأنه حين تصح النية ، وتعزم البشرية – أو تعزم الأمة المسلمة – أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية ، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة مع نظافة الخلق وطهارة المجتمع ، فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد ، الذى أراده الله للبشرية ، والذى طبق فعلًا ، ونمت الحياة فى ظله فعلًا ، وماتزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفى ظلاله ، لو عقل الناس ورشدوا !

إن الإنسانية التى انحرفت عن النهج قديماً حتى ردها الإسلام إليه ، هى الإنسانية التى تنحرف اليوم الانحراف ذاته ، ولاتفىء إلى النهج القويم الرحيم السليم ..

فلننظر كيف كانت ثورة الإسلام على تلك الشناعة التى ذاقت منها البشرية مالم تذق قط من بلاء :

﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾

وماكان أى تهديد معنوى ليبلغ إلى الحس ماتبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة .. صورة الممسوس المصروع .. وهى صورة معروفة معهودة للناس ، فالنص يستحضرها لتؤدى دورها الإيحائى فى إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم فى نظامهم الاقتصادى ، ومن حرصهم على مايحققه لهم من الفائدة .. وهى وسيلة فى التأثير التربوى ناجعة فى مواضعها ، بينما هى فى الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة .. ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام فى هذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم البعث ، ولكن هذه الصورة – فيما نرى – واقعة بذاتها فى حياة البشرية فى هذه الأرض أيضاً ، ثم إنها تتفق مع ماسيأتى بعدها من الإنذار بحرب من الله ورسوله ، ونحن نرى أن هذه الحرب واقعة وقائمة الآن ومسلطة على البشرية الضالة التى تتخبط كالممسوس فى عقابيل النظام الربوى ....

الذيـــن اســـــتزلهم الشـــــيطان

قال تعالى :

﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

قد تكون الإشارة فى هذه الآية خاصة بالرماة الذين جال فى نفوسهم الطمع فى الغنيمة كما جال فيها أن رسول الله ﷺ سيحرمهم أنصبتهم ، فكان هذا هو الذى كسبوه ، وهو الذى استزلهم الشيطان به ..

ولكنها فى عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة فتفقد ثقتها فى قوتها ، ويضعف بالله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس ، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه ! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس ، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة ، وهى بعيدة عن الحمى الآمن ، والركن الركين .

ومن هنا كان الاستغفار من الذنب هو أول ماتوجه به الربيّون الذين قاتلوا مع النبيين فى مواجهة الأعداء ، الاستغفار الذى يردهم إلى الله ، ويقوى صلتهم به ، ويعفى قلوبهم من الأرجحة ، ويطرد عنها الوساوس ، ويسد الثغرة التى يدخل منها الشيطان ، ثغرة الانقطاع عن الله ، والبعد عن حماه ، هذه الثغرة التى يدخل منها فيزل أقدامهم مرة ومرة ، حتى ينقطع بهم فى التيه ، بعيداً بعيداً عن الحمى الذى لا ينالهم فيه !

ويحدثهم الله أن رحمته أدركتهم ، فلم يدع الشيطان ينقطع بهم ، فعفا عنهم .. ويعرفهم بنفسه سبحانه فهو غفور حليم ، لا يطرد الخطاة ولا يعجل عليهم ، متى علم من نفوسهم التطلع إليه ، والاتصال به ، ولم يعلم منها التمرد والتفلت والإباق !

الشـــيطان يخـــوف أوليـــاءه

قال تعالى :

﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ ..

[آل عمران : ١٧٥] .

إنه الشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب ، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة .. ومن ثم ينبغى أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان ، وأن يبطلوا محاولته ، فلا يخافوا أولياءه هؤلاء ، ولا يخشوهم ، بل يخافوا الله وحده ، فهو وحده القوى القاهر القادر ، الذى ينبغى أن يخاف ..

إن الشيطان هو الذى يضخم من شأن أوليائه ، ويلبسهم لباس القوة والقدرة ، ويوقع فى القلوب أنهم ذوو حول وطول ، وأنهم يملكون النفع والضر .. ذلك ليقضى بهم لباناته وأغراضه ، وليحقق بهم الشر فى الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب ، فلا يرتفع فى وجوههم صوت الإنكار ، ولا يفكر أحد فى الانتقاض عليهم ، ودفعهم عن الشر والفساد .

والشيطان صاحب مصلحة فى أن ينتفش الباطل ، وأن يتضخم الشر ، وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً بطاشاً جباراً ، لا تقف فى وجهه معارضة ولا يصمد له مدافع ، ولا يغلبه من المعارضين غالب .. الشيطان صاحب مصلحة فى أن يبدو الأمر هكذا ، فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفى ظل الإرهاب والبطش ، يفعل أولياؤه فى الأرض مايقر عينه ! يقلبون المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وينشرون الفساد والباطل والضلال ، ويخنقون صوت الحق والرشد والعدل ، ويقيمون أنفسهم آلهة فى الأرض تحمى الشر وتقتل الخير .. دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف فى وجههم ، ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة ، بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذى يروجون له ، وجلاء الحق الذى يطمسونه ..

والشيطان ماكر غادر ، يختفى وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم فى صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته .. ومن هنا يكشفه الله ، ويوقفه عارياً لا يستره ثوب من كيده

ومكره ، ويعرف المؤمنين الحقيقة : حقيقة مكره ووسوسته ، ليكونوا منها على حذر ، فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم ، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ، ويستند إلى قوته .. إن القوة الوحيدة التى تخشى وتخاف هى القوة التى تملك النفع والضر،هى قوة الله ، وهى القوة التى يخشاها المؤمنون بالله ، وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء ، فلا تقف لهم قوة فى الأرض .. لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان : ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ ..

قـــرناء الشـــيطان

قال تعالى :

﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ [النساء : ٣٨] .

ورد أن هذه النصوص نزلت فى جماعة من يهود المدينة .. وهى صفات تنطبق على اليهود ، كما تنطبق على المنافقين .. وكلاهما كان موجوداً فى المجتمع المسلم فى ذلك الحين .. وقد تكون الإشارة إلى كتمانهم ماآتاهم الله من فضله ، تعنى كذلك كتمانهم للحقائق التى يعرفونها فى كتبهم عن هذا الدين ، وعن رسوله الأمين .. ولكن النص عام ، والسياق بصدد الإحسان بالمال وبالمعاملة ، فأولى أن نترك مفهومه عاماً ، لأنه الأقرب إلى طبيعة السياق .

وهكذا تتضح تلك اللمسة الأساسية فى المنهج الإسلامى ، وهى ربط كل مظاهر السلوك ، وكل دوافع الشعور ، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة ، فإفراد الله سبحانه بالعبادة والتلقى ، يتبعه الإحسان إلى البشر ، ابتغاء وجه الله ورضاه ، والتعلق بثوابه فى الآخرة ، فى أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلّا من رزق الله ، فهو لا يخلق رزقه ، ولا ينال إلّا من عطاء الله .. والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر ، والبخل والأمر بالبخل ، وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها فى إحسان أو عطاء ، أو الإنفاق رياءً وتظاهراً طلباً للمفخرة عند الناس ، إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد !

وهكذا تتحدد الأخلاق .. أخلاق الإيمان ، وأخلاق الكفر .. فالباعث على العمل الطيب ، والخلق الطيب ، هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والتطلع إلى رضاء الله .. وجزاء الآخرة ، فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس ، ولا يتلقاه ابتداء من عرف الناس ! فإذا لم يكن هناك إيمان بإله يبتغى وجهه ، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة فى رضاه ، وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء .. اتجه هم الناس إلى نيل القيم

الأرضية المستمدة من عرف الناس ، وهذه لا ضابط لها فى جيل واحد فى رقعة واحدة ، فضلًا عن أن يكون لها ضابط ثابت فى كل زمان وفى كل مكان ! وكانت هذه هى بواعثهم للعمل ، وكان هناك التأرجح المستمر كتأرجح أهواء الناس وقيمهم التى لا تثبت على حال ! وكان معها تلك الصفات الذميمة من الفخر والخيلاء ، والبخل والتبخيل ، ومراءاة الناس لا التجرد والإخلاص !

الذيــن أضـــلهم الشـــيطان

قال تعالى :

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالًا بعيداً﴾ [النساء : ٦٠] .

نحن نجد فى هذه المجموعة من الآيات ، تحديداً كاملًا دقيقاً حاسماً لشرط الإيمان وحد الإسلام ، ونجد شهادة من الله بعدم إيمان الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، كما نجد قسماً من الله سبحانه بذاته العلية أنهم لا يدخلون فى الإيمان ، ولا يحسبون مؤمنين حتى يحكموا الرسول ﷺ فى أقضيتهم ، ثم يطيعوا حكمه ، وينفذوا قضاءه ، طاعة الرضى وتنفيذ الارتياح القلبى ، الذى هو التسليم ، لا عجزاً واضطراراً ، ولكن طمأنينة وارتضاء ..

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وماأُنزل من قبلك ..﴾ ألم تر إلى هذا العجب العاجب .. قوم .. يزعمون .. الإيمان ، ثم يهدمون هذا الزعم فى آن ؟ قوم : يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك .. ثم لا يتحاكمون إلى ماأُنزل إليك وماأنزل من قبلك ؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر ، وإلى منهج آخر ، وإلى حكم آخر .. يريدون أن يتحاكموا إلى .. الطاغوت .. الذى لا يستمد مما أنزل إليك وماأنزل من قبلك ، ولا ضابط له ولا ميزان ، مما أنزل إليك وماأنزل من قبلك .. ومن ثم فهو .. طاغوت .. طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية ، وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضاً ! وهم لا يفعلون هذا عن جهل ، ولا عن ظن .. إنما هم يعلمون يقيناً ويعرفون تماماً ، أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه : **﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾** .. فليس فى الأمر جهالة ولا ظن ، بل هو العمد والقصد ، ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم ، زعم أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وماأنزل من قبلك ! إنما هو الشيطان الذى يريد بهم الضلال الذى لا يرجى منه مآب .. **﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالًا بعيداً﴾** ..

فهذه هى العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ، وهذا هو الدافع الذى يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ! هذا هو الدافع يكشف لهم ، لعلهم يتنبهون فيرجعوا ، ويكشفه للجماعة المسلمة ، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك .

أوليـــاء الشـــيطان

قال تعالى :

﴿**الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ [النساء ٧٦]

فى لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق ، وفى لحظة ترتسم الأهداف ، وتتضح الخطوط ، وينقسم الناس إلى فريقين اثنين ، تحت رايتين متميزتين : ﴿**الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله**﴾ .. ﴿**والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت**﴾ ..

الدين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته ، وإقامة العدل بين الناس باسم الله ، لا تحت أى عنوان آخر ، اعترافاً بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم .

﴿**والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت**﴾ ، لتحقيق مناهج شتى – غير منهج الله – وإقرار شرائع شتى – غير شريعة الله – وإقامة قيم شتى – غير التى أذن بها الله – ونصب موازين شتى غير ميزان الله !

ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته .

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم ، وشتى مناهجهم ، وشتى شرائعهم ، وشتى طرائقهم ، وشتى قيمهم ، وشتى موازينهم .. فكلهم أولياء الشيطان .

ويأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ، ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان : ﴿**فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد ، مقتنعى الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ ، وليست لقومهم ، ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء .. إنما هى لله وحده ،

ولمنهجه وشريعته ، وأنهم يواجهون قوماً أهل باطل ، يقاتلون لتغليب الباطل على الحق ، لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية – وكل مناهج البشر جاهلية – على شريعة منهج الله ، ولتغليب شرائع البشر الجاهلية – وكل شرائع البشر جاهلية – على شريعة الله ، ولتغليب ظلم البشر – وكل حكم للبشر من دون الله ظلم – على عدل الله ، الذى هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس ..

كذلك يخوضون المعركة ، وهم يوقنون أن الله وليهم فيها ، وأنهم يواجهون قوماً ، الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف .. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة فى حس المؤمنين ، وتحدد نهايتها ، قبل أن يدخلوها ، وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن فى المعركة – فهو واثق من النتيجة – أم بقى حتى غلب ، ورأى بعينيه النصر ، فهو واثق من الأجر العظيم .

من هذا التصور الحقيقى للأمر فى كلتا حالتيه ، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التى حفظها تاريخ الجهاد فى سبيل الله فى حياة الجماعة المسلمة الأولى ، والتى تناثرت على مدى التاريخ فى أجيال كثيرة ...

الشـــيطان يأمـــر أوليـــاءه بـــأن يغيـــروا خـــلق الله

قال تعالى :

﴿إن يدعون من دونه إلّا إناثاً وإن يدعون إلّا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرنَّ خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسرخسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلّا غروراً * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً﴾ [النساء : ١١٧ – ١٢١] .

لقد كان العرب – فى جاهليتهم – يزعمون أن الملائكة بنات الله ، ثم يتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الإناث : اللات ، والعزى ، ومناة ، وأمثالها ثم يعبدون هذه الأصنام – بوصفها تماثيل لبنات الله – يتقربون بها إلى الله زلفى .. كان هذا على الأقل فى مبدأ الأمر .. ثم ينسون أصل الأسطورة ، ويعبدون الأصنام ذاتها ، بل يعبدون جنس الحجر ..

كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان نصاً .. قال الكلبى : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن ..

على أن النص هنا أوسع مدلولًا ، فهم فى شركهم كله إنما يدعون الشيطان ، ويستمدون منه : هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم ، الذى لعنه الله ، بسبب معصيته وعدائه للبشر ، والذى بلغ من حقده بعد طرده ولعنته ، أن يأخذ من الله سبحانه إذناً بأن يغوى من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى الله .

إنهم يدعون الشيطان – عدوهم القديم – ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال ، ذلك الشيطان الذى لعنه الله ، والذى صرح بنيته فى إضلال فريق من أبناء آدم ، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة فى طريق الغواية ، من لذة كاذبة ، وسعادة موهومة ، ونجاة من الجزاء فى نهاية المطاف ! كما صرح بنيته فى أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة ، وشعائر سخيفة ، من نسج الأساطير ، كتمزيق آذان بعض الأنعام ، ليصبح ركوبها بعد ذلك حراماً ، أو أكلها

حراماً – دون أن يحرمها الله – ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها فى الحيوان أو الإنسان ، كخصاء الرقيق ، ووشم الجلود .. وما إليها من التغيير والتشويه الذى حرمه الإسلام .

وشعور الإنسان بأن الشيطان – عدوه القديم – هو الذى يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية ، يثير فى نفسه – على الأقل – الحذر من الفخ الذى نصبه العدو ، وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان ، ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذى ينشئه فى الأرض ، والوقوف تحت راية الله وحزبه ، فى مواجهة الشيطان وحزبه : وهى معركة دائمة لا تضع أوزارها ، لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التى أعلنها منذ لعنه وطرده، والمؤمن لا يغفل عنها ، ولا ينسحب منها ، وهو يعلم أنه إما أن يكون ولياً لله، وإما أن يكون ولياً للشيطان ، وليس هنالك وسط .. والشيطان يتمثل فى نفسه ومايبثه فى النفس من شهوات ونزوات ، ويتمثل فى أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة ، والمسلم يكافحه فى ذات نفسه ، كما يكافحه فى أتباعه .. معركة واحدة متصلة طوال الحياة .

ومن يجعل الله مولاه فهو ناج غانم ..

ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك :

﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ ..

ويصور السياق القرآنى فعل الشيطان مع أوليائه ، فى مثل حالة الاستهواء .

﴿يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾ ..

إنها حالة استهواء معينة هى التى تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد ، إلى الكفر والشرك ، ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة فى طريقها ، ولكان الإيمان هو هادى الفطرة وحاديها .

وإنها حالة استهواء معينة هى التى يزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله ، فيراه حسناً ! ويعده الكسب والسعادة فى طريق المعصية ، فيغدو معه فى الطريق ! ويمنيه النجاة من عاقبة

مايعمل فيطمئن ويمضى فى طريقه إلى المهلكة !

﴿ومايعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾ ...

وحين يرتسم المشهد على هذا النحو ، والعدو القديم يفتل الحبال ، ويضع الفخ ، ويستدرج الفريسة ، لا تبقى إلّا الجبلات الموكوسة المطموسة هي التى تظل سادرة لاتستيقظ ، ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أى طريق تساق ، وإلى أية هوة تُستهوى !

وبينما هذه اللمسة الموقظة تفعل فعلها فى النفوس ، وتصور حقيقة المعركة ، وحقيقة الموقف ، يجىء التعقيب ببيان العاقبة فى نهاية المطاف : عاقبة من يستهويهم الشيطان ، ويصدق عليهم ظنه ، وينفذ فيهم ماصرح به من نيته الشريرة .. وعاقبة من يفلتون من حبالته ، لأنهم آمنوا بالله حقاً ، والمؤمنون بالله حقاً فى نجوة من هذا الشيطان لأنه – لعنة الله عليه – وهو يستأذن فى إغواء الضالين ، لم يؤذن له فى المساس بعباد الله المخلصين . فهو إزاءهم ضعيف ضعيف ، كلما اشتدت قبضتهم على حبل الله المتين : **﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلّا غروراً * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً * والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ؟﴾** ...

فهى جهنم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان ...

وهى جنات الخلد لا خروج منها لأولياء الله .. وعد الله : **﴿ومن أصدق من الله قيلا ؟؟﴾** ...

والصدق المطلق فى قول الله هنا ، يقابل الغرور الخادع ، والأمانى الكاذبة فى قول الشيطان هناك ! وشتان بين من يثق بوعد الله ، ومن يثق بتغرير الشيطان !

عمـــل الشـــيطان

قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدَّكُمْ عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة : ٩٠ – ٩١] .

لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية ، ومن التقاليد المتغلغلة فى المجتمع الجاهلى ، وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق فى مزاولتها ، وفى كونها من سمات ذلك المجتمع وتقاليده .. فلقد كانوا يشربون الخمر فى إسراف ، ويجعلونها من المفاخر التى يتسابقون فى مجالسها ويتكاثرون ، ويديرون عليها فخرهم فى الشعر ومدحهم كذلك ! وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح واتخاذ الشواء منها للشاربين وللسقاة ولأحلاس هذه المجالس ومن يلوذون بها ويلتفون حولها ! وكانت هذه الذبائح تنحر على الأنصاب وهى أصنام لهم كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها (كما كانت تذبح عليها الذبائح التى تقدم للآلهة أى لكهنتها !) .. وفى ذبائح مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية التى تشبهها كان يجرى الميسر عن طريق الأزلام ، وهى قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة ، فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه ، فالذى قدحه (المعلى) يأخذ النصيب الأوفر ، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدحه ، وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها !

وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية ، ويبدو جريانها كذلك وفق حال الجاهلية وتصوراتها الاعتقادية .

ولم يبدأ المنهج الإسلامى فى معالجة هذه التقاليد فى أول الأمر ، لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة ، فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع ، حاشا للمنهج الربانى أن يفعله ! إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى ، عقدة العقيدة ، بدأ باجتثاث التصور الجاهلى الاعتقادى جملة من جذوره ، وإقامة التصور الإسلامى

الصحيح ، إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة .. بيّن للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية وهداهم إلى الإله الحق ، وحين عرفوا إلههم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى مايحبه منهم هذا الإله الحق ومايكرهه ، وماكانوا قبل ذلك ليسمعوا ! أو يطيعوا أمراً ولا نهياً ، وماكانوا ليقلعوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهى وبذلت لهم النصيحة .. إن عقدة الفطرة البشرية هى عقدة العقيدة ، ومالم تنعقد هذه العقدة أولًا فلن يثبت فيها شيء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعى .. إن مفتاح الفطرة البشرية هاهنا ، ومالم تفتح بمفتاحها فستظل سراديبها مغلقة ودروبها ملتوية ، وكلما كشف منها زقاق انبهمت أزقة ، وكلما ضاء منها جانب أظلمت جوانب ، وكلما حلت منها عقدة تعقدت عقد ، وكلما فتح منها درب سدت دروب ومسالك .. إلى مالا نهاية ..

لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامى فى علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها ، من هذه الرذائل والانحرافات .. إنما بدأ من العقيدة .. بدأ من شهادة أن لا إله إلّا الله .. وطالت فترة إنشاء لا إله إلّا الله هذه فى الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاماً ، لم يكن فيها غاية إلّا هذه الغاية ! تعريف الناس بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم لسلطانه .. حتى إذا خلصت نفوسهم لله ، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلّا مايختاره الله .. عندئذ بدأت التكاليف – بما فيها الشعائر التعبدية – وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية .. بدأت فى الوقت الذى يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال ، لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه أياً كان !

أو بتعبير آخر : لقد بدأت الأوامر والنواهى بعد الإسلام .. بعد الاستسلام .. بعد أن لم يعد للمسلم فى نفسه شيء .. بعد أن لم يعد يفكر فى أن يكون له إلى جانب أمر الله رأى أو اختيار .. أو كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه : «**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**» تحت عنوان : «**انحلت العقدة الكبرى**» !

انحلت العقدة الكبرى .. عقدة الشرك والكفر .. فانحلت العقد كلها ، وجاهدهم رسول الله ﷺ جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهى ، وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة ، وقد دخلوا فى

السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعدما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ماأمر أو نهى ، حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد .. نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة .. أهـ .

ومع هذا فلم يكن تحريم الخمر ومايتصل بها من الميسر أمراً مفاجئاً .. فلقد سبقت هذا التحريم القاطع مراحل وخطوات فى علاج هذه التقاليد الاجتماعية المتغلغلة ، المتلبسة بعادات النفوس ومألوفاتها ، والمتلبسة كذلك ببعض الجوانب الاقتصادية وملابساتها .

لقد كانت هذه هى المرحلة الثالثة أو الرابعة فى علاج مشكلة الخمر فى المنهج الإسلامى :

كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم فى الاتجاه حين قال الله سبحانه فى سورة النحل المكية : ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ..**﴾ فكانت أول مايطرق حس المسلم من وضع السكر (وهو المخمر) فى مقابل الرزق الحسن .. فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر .

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الدينى عن طريق المنطق التشريعى فى نفوس المسلمين حين نزلت التى فى سورة البقرة : ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾ .. وفى هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى مادام الإثم أكبر من النفع ، إذ أنه قلما يخلو شيء من نفع ، ولكن حله أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر أو النفع .

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب ، وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التى فى النساء : ﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون**﴾ .. والصلاة فى خمسة أوقات معظمها متقارب ، ولا يكفى مابينها للسكر ثم الإفاقة ، وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب – وخاصة عادة الصبوح فى

الصباح والغبوق بعد العصر أو المغرب كما كانت عادة الجاهليين - وفيه كسر لعادة الإدمان التى تتعلق بمواعيد التعاطى ، وفيه - وهو أمر له وزنه فى نفس المسلم - ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة فى مواعيدها والوفاء بعادة الشراب فى مواعيدها !

ثم كانت هذه الرابعة الحاسمة والأخيرة ، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤاً كاملًا فلم يكن إلا النهى حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان .

ولما نزلت آيات التحريم هذه ، فى سنة ثلاث بعد وقعة أحد ، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد فى نوادى المدينة : ألا أيها القوم ، إن الخمر قد حرمت .. فمن كان فى يده كأس حطمها ومن كان فى فمه جرعة مجها ، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه .. وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر !

والآن ننظر فى صياغة النص القرآنى ، والمنهج الذى يتجلى فيه منهج التربية والتوجيه : إنه يبدأ بالنداء المألوف فى هذا القطاع : ﴿**يأيها الذين آمنوا**﴾ ..

لاستجاشة قلوب المؤمنين من جهة ، ولتذكيرهم بمقتضى هذا الإيمان من الالتزام والطاعة من جهة أخرى ..

يلى هذا النداء الموحى تقرير حاسم على سبيل القصر والحصر : ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان**﴾ ..

فهى دنسة لا ينطبق عليها وصف الطيبات التى أحلها الله ، وهى من عمل الشيطان ، والشيطان عدو الإنسان القديم ، ويكفى أن يعلم المؤمن أن شيئاً ما من عمل الشيطان لينفر منه حسه ، وتشمئز منه نفسه ، ويجفل منه كيانه ، ويبعد عنه من خوف ويتقيه !

وفى هذه اللحظة يصدر النهى مصحوباً كذلك بالإطماع فى الفلاح - وهى لمسة أخرى من لمسات الإيحاء النفسى العميق : ﴿**فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ ..

ثم يستمر السياق فى كشف خطة الشيطان من وراء هذا الرجس : ﴿**إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ..**﴾ ..

٦ بهذا ينكشف لضمير المسلم هدف الشيطان ، وغاية كيده ، وثمرة رجسه .. إنها إيقاع العداوة والبغضاء فى الصف المسلم - فى الخمر والميسر - كما أنها هى صد **«الذين آمنوا»** عن ذكر الله وعن الصلاة .. ويالها إذن من مكيدة !

وهذه الأهداف التى يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون أن يروها فى عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهى الصادق بذاته ، فما يحتاج الإنسان إلى طول بحث حتى يرى أن الشيطان يوقع العداوة والبغضاء - فى الخمر والميسر - بين الناس ، فالخمر بما تفقد من الوعى وبما تثير من عرامة اللحم والدم ، وبما تهيج من نزوات ودفعات ، والميسر الذى يصاحبها وتصاحبه بما يتركه فى النفوس من خسارات وأحقاد ، إذا المقمور لابد أن يحقد على قامره الذى يستولى على ماله أمام عينيه ، ويذهب به غانماً وصاحبه مقمور مقهور .. إن من طبيعة هذه الأمور أن تثير العداوة والبغضاء ، مهما جمعت بين القرناء فى مجالات من العربدة والانطلاق اللذين يخيل للنظرة السطحية أنهما أنس وسعادة !

وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فلا يحتاجان إلى نظر .. فالخمر تنسى ، والميسر يلهى ، وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين ، وعالم المقامر كعالم السكير لا يتعدى الموائد والأقداح والقداح !

وهكذا عندما تبلغ هذه الإشارة إلى هدف الشيطان من هذا الرجس غايتها من إيقاظ قلوب «الذين آمنوا» وتحفزها ، يجىء السؤال الذى لا جواب له عندئذ إلّا جواب عمر رضى الله عنه وهو يسمع : ﴿**فهل أنتم منتهون ؟**﴾

فيجيب لتوه : «انتهينا .. انتهينا» ..

ولكن السياق يمضى بعد ذلك يوقع إيقاعه الكبير : ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين**﴾ ..

إنها القاعدة التى يرجع إليها الأمر كله : طاعة الله وطاعة الرسول .. الإسلام .. الذى لا تبقى معه إلا الطاعة المطلقة لله والرسول .. والحذر من المخالفة ، والتهديد الملفوف ....

ومن عمل الشيطان أيضاً ماذكره الله سبحانه وتعالى من قتل موسى للقبطى :

﴿**ودخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته**

وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾ [القصص : ١٥] .

يصور ذلك انفعال موسى وغضبه ، ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به .. ويبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطى ولم يعمد إلى القضاء عليه ، فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاه إلى الشيطان وغوايته ، فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان : **﴿قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾** ..

ثم استطرد فى فزع مما دفعه إليه الغضب ، يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر ، ويتوجه إلى ربه ، طالباً مغفرته وعفوه .. واستجاب الله إلى ضراعته وحساسيته واستغفاره .

تزيين الشيطان للأعمال المنكرة

قال تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون ﴾ [الأنعام : ٤٢ - ٤٣] .

لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم ، وينقبوا فى ضمائرهم وفى واقعهم ، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله ، ويتذللون له ، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم ، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة ، فيرفع الله عنهم البلاء ، ويفتح لهم أبواب الرحمة .. ولكنهم م يفعلوا ماكان حرياً أن يفعلوا ، لم يلجأوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، وم ترد إليهم الشدة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم ، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ماهم فيه من الضلال والعناد : **﴿ ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون ﴾** ..

والقلب الذى لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة ، التى تنبه القلوب الحية للتلقى والاستجابة .. والشدة ابتلاء من الله للعبد ، فمن كان حياً أيقظته ، وفتحت مغاليق قلبه ، وردته إلى ربه ، وكانت رحمة له من الرحمة التى كتبها الله على نفسه .. ومن كان ميتاً حسبت عليه ، ولم تفده شيئاً ، وإنما أسقطت عذره وحجته ، وكانت عليه شقوة ، وكانت موطئه للعذاب !

وهذه الأمم التى يقص الله سبحانه من أنبائها على رسوله ﷺ ومن وراءه من أمته .. لم تفد من الشدة شيئاً، لم تتضرع إلى الله ، وم ترجع عما زينه لها الشيطان من الإعراض والعناد .. وهنا يملى لها سبحانه ويستدرجها بالرخاء : **﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾** ..

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة ، وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة ! والله يبتلى بالرخاء كما يبتلى بالشدة ، يبتلى الطائعين والعصاة سواء ، بهذه وبذاك سواء ، والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر ، ويبتلى بالرخاء فيشكر ، ويكون أمره كله خيراً .. وفى الحديث : «**عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[1] .

وقال تعالى :

﴿**وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون**﴾ [النمل : ٢٤] .

وقال تعالى :

﴿**وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين**﴾ [العنكبوت : ٣٨] .

---

(١) - أخرجه مسلم (الزهد) ٦٣ ، و «الإتحاف» ٩/ ١٤٠ ، و «مشكاة المصابيح» (٥٢٩٧) ، و «الفتح» ١٠/ ١٠٩ ، و «الترغيب» ٤/ ٢٧٨ ، و «الكنز» (٧١٠) ، و «زاد المسير» ٣/ ٣٩ ، و «الدار المنثور» ١/ ١٥٤ و ٥/ ٢٣٤ وابن كثير ١/ ٢٨٣ و ٣/ ٤٤٦ و ٤/ ١٨٩ ، و «المغنى عن حمل الأسفار» ٤/ ١٢٧ .

الذين استولى عليهم الشيطان

قال تعالى :

﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦]

وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها .. ذلك الذى آتاه الله آياته ، فكانت فى متناول نظره وفكره ، ولكنه انسلخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ، فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية ، فاستولى عليه الشيطان ، وأمسى مطروداً من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار ..

ولكن البيان القرآنى المعجز لا يصوغ المثل هذه الصياغة ! إنما يصوره فى مشهد حى متحرك ، عنيف الحركة ، شاخص السمات ، بارز الملامح ، واضح الإنفعالات ، يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة ، إلى جانب إيقاعات العبارة الموحية ..

إنه مشهد من المشاهد العجيبة ، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات .. إنسانٌ يؤتيه الله آياته ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع .. ولكن هاهو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً ، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه .. أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟.. هاهو ذا ينسلخ من آيات الله ، ويتجرد من الغطاء الواقى ، والدرع الحامى ، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ، ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم ، فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام ، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه .. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد .. إذا نحن

بهذا المخلوق ، لاصقاً بالأرض ، ملوثاً بالطين ، ثم إذا هو مسخ فى هيئة الكلب ، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد .. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى ، والخيال شاخص يتبعها فى انفعال وانبهار وتأثر .. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها .. مشهد اللهاث الذى لا ينقطع .. سمع التعليق المرهوب الموحى ، على المشهد كله : ﴿**ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلًا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون**﴾ ..

ذلك مثلهم ! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بنظرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم ، ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً ، ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان ، هابطون عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان .. مكان الكلب الذى يتمرغ فى الطين .. وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين ، وكانوا من فطرتهم الأولى فى أحسن تقويم ، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين !

﴿**ساء مثلًا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون**﴾!..

وهل أسوأ من هذا المثل مثلًا ؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعرى من الهدى ؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى ؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا ؟ من يعريها من الغطاء الواقى والدرع الحامى ، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمها ويركبها ، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض . الحائر القلق ، اللاهث لهاث الكلب أبداً !!

مس الشيطان

قال تعالى : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون**﴾ [الأعراف : ١٩٩ - ٢٠٢]

تجىء هذه التوجيهات الربانية فى نهاية السورة ، من الله سبحانه إلى أوليائه .. رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه .. وهم بعد فى مكة ، وفى مواجهة تلك الجاهلية من حولهم فى الجزيرة العربية وفى الأرض كافة .. هذه التوجيهات الربانية فى مواجهة تلك الجاهلية الفاحشة ، وفى مواجهة هذه البشرية الضالة ، تدعو صاحب الدعوة ﷺ إلى السماحة واليسر ، والأمر بالواضح من الخير الذى تعرفه فطرة البشر فى بساطتها ، بغير تعقيد ولا تشديد ، والإعراض عن الجاهلين فلا يؤاخذهم ، ولا يجادلهم ، ولا يحفلهم ، فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد ، ونفخ الشيطان فى هذا الغضب ، فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر ...

الرسول ﷺ بشر ، قد يثور غضبه على جهالة الجهال وسفاهة السفهاء وحمق الحمقى .. وإذا قدر عليها رسول الله ﷺ فقد يعجز عنها من وراءه من أصحاب الدعوة .. وعند الغضب ينزغ الشيطان فى النفس ، وهى ثائرة هائجة مفقودة الزمام !.. لذا يأمره ربه أن يستعيذ بالله ، لينفثىء غضبه ، ويأخذ على الشيطان طريقه ...

ثم يتخذ السياق القرآنى طريقاً آخر للإيحاء إلى نفس صاحب الدعوة بالرضى والقبول ، وذكر الله عند الغضب لأخذ الطريق على الشيطان ونزغه اللئيم :

﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ ..

وتكشف هذه الآية القصيرة عن إيحاءات عجيبة ، وحقائق عميقة ، يتضمنها التعبير القرآنى المعجز الجميل .. إن اختتام الآية بقوله : ﴿**فإذا هم مبصرون**﴾ .. ليضيف معانى كثيرة إلى صدر الآية ، ليس لها ألفاظ تقابلها هناك .. إنه يفيد أن مس الشيطان يعمى

ويطمس ويغلق البصيرة ، ولكن تقوى الله ومراقبته وخشية غضبه وعقابه .. تلك الوشيجة التى تصل القلوب بالله وتوقظها من الغفلة عن هداه .. تذكر المتقين ، فإذا تذكروا تفتحت بصائرهم ، وتكشفت الغشاوة عن عيونهم : **﴿فإذا هم مبصرون﴾** .. إن مس الشيطان عمى ، وإن تذكر الله إبصار .. إن مس الشيطان ظلمة ، وإن الاتجاه إلى الله نور .. إن مس الشيطان تجلوه التقوى فما للشيطان على المتقين من سلطان ... ذلك شأن المتقين : **﴿إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** .. جاء بيان هذا الشأن معترضاً بين أمر الله سبحانه بالإعراض عن الجاهلين ، وبيان ماذا ومن ذا وراء هؤلاء الجاهلين ، يدفعهم إلى الجهل والحمق والسفه الذى يزاولون .. فلما انتهى التعقيب عاد السياق يحدث عن الجاهلين : **﴿وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون﴾** ..

وإخوانهم الذين يمدونهم فى الغى هم شياطين الجن .. وقد يكونون هم شياطين الإنس أيضاً .. إنهم يزيدون لهم فى الضلال ، لا يكلون ولا يسأمون ولا يسكتون ! وهم من ثم يحمقون ويجهلون ! ويظلون فيما هم فيه سادرين ..

وقال تعالى : **﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب﴾** [ص : ٤١] .

قصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة ، وهى تضرب مثلًا للابتلاء والصبر ، ولكنها مشوبة بالإسرائيليات تطغى عليها ، والحد المأمون فى هذه القصة هو أن أيوب عليه السلام كان كما جاء فى القرآن عبداً صالحاً أوّاباً ، وقد ابتلاه الله فصبر صبراً جميلًا ، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعاً ولكنه ظل على صلته بربه ، وثقته به ، ورضاه بما قسم له .

وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له - ومنهم زوجته - بأن الله لو كان يحب أيوب ماابتلاه ، وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه فى نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء ، فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عدداً عينه - قيل مائة .

وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ، ومداخله إلى نفوس خلصائه ، ووقع هذا الإيذاء فى نفسه : ﴿**أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب**﴾ ..

فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ، ونفوره من محاولات الشيطان ، وتأذيه بها ، أدركه برحمته ، وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته ....

وســـوسة الشـــيطان

قال تعالى :

﴿.. وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويُذهب عنكم رجس الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ [الأنفال : ١١] .

أما قصة الماء .. فهى قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة قبيل المعركة ..

قال على بن طلحة ، عن ابن عباس قال : نزل النبى ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطراً شديداً ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجس الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه ﷺ بألف من الملائكة ...

ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله ﷺ ماأشار به الحباب بن المنذر من النزول على ماء بدر ، وتغوير ماوراءها من القلب .

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما صار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أى أول ماء وجده فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال : يارسول الله ، هذا المنزل الذى نزلته ، منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» فقال : يارسول الله ، ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلى القوم ونغور ماوراءه من القلب ونسقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء ، فسار رسول الله ﷺ ففعل ذلك .. [١]

ففى هذه الليلة – وقبل إنفاذ مشورة الحباب بن المنذر – كانت هذه الحالة التى يذكر الله بها العصبة التى شهدت بدراً .. والمدد على هذا النحو مدد مزدوج : مادى وروحى .

---

(١) – أخرجه الإمام أحمد ٣/٢٤٢ بلفظ : «من عندى» .

فالماء فى الصحراء مادة الحياة ، فضلًا عن أن يكون أداة النصر ، والجيش الذى يفقد الماء فى الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة ، ثم هذه الحالة النفسية التى صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان ! حالة التحرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء (ولم يكن قد رخص لهم بعد فى التيمم فقد جاء هذا متأخراً فى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة) . وهنا تثور الهواجس والوساوس ، ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب ! والنفوس التى تدخل المعركة فى مثل هذا الحرج وفى مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها .. وهنا يجىء المدد وتجىء النجدة ..

﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجس الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ ..

ويتم المدد الروحى بالمدد المادى ، وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ، وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال .

ذلك إلى ماأوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا ، وإلى ماوعد به من إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا، وإلى ماأمر به الملائكة من الاشتراك الفعلى فى المعركة ....

خذلان الشيطان لمن يجيرهم ويوعدهم

قال تعالى :

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب﴾ [الأنفال : ٤٨] ..

يصور السياق وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذى نالهم منه مانالهم من الذل والخيبة والخسار والانكسار ..

ولقد وردت فى هذه الآية والحادث الذى تشير إليه عدة آثار ، ليس من بينها حديث عن رسول الله ﷺ إلّا مارواه مالك فى « الموطأ » عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ، أن رسول الله ﷺ قال :

« مارئى إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة ، وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلّا مارأى يوم بدر ! » قالوا : يارسول الله ومارأى يوم بدر ؟ قال : **« أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة »** (١)

وعن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه راية ، فى صورة رجل من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ... فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل إلى إبليس ، فلما رآه ، وكانت يده فى يد رجل من المشركين ، انتزع إبليس يده

(١) – أخرجه الإمام مالك فى « الموطأ » وفى سنده عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون وهو ضعيف الحديث ، والخبر مرسل ٢٠ / ٤٢٢ ، و « مشكاة المصابيح » (٣٦٠٠) ، و« الدر المنثور » ١ / ٢٢٨ ، والقرطبى ٢ / ٤١٩ و ٨ / ٢٧ و ١٣ / ١٦٨ ، و « الإتحاف » ٤٠ / ٢٧١ ، و « المغنى عن حمل الأسفار » ١ / ٢٤٠ ، وابن كثير ٤ / ١٩ ، و « الترغيب » ٢ / ٢٠١ ، و « شرح السنة » ٧ / ١٥٨ ، و « الكنز » (١٢١٠٥) و (١٢١٠٦) .

فولى مدبراً هو وشيعته ، فقال الرجل : ياسراقة ، تزعم أنك لنا جار ؟ قال : إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب . وذلك حين رأى الملائكة .

وعن عروة بن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر – يعنى من الحرب – فكاد ذلك أن يثنيهم ،فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى ، وكان من أشراف كنانة ، فقال : أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراعاً ...

وعن قتادة فى قوله : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم – إلى قوله – شديد العقاب** ﴾ قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة فزعم عدو الله أنه لا يد له بالملائكة ، وقال : ﴿ **إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله** ﴾ .. وكذب والله عدو الله ، مابه مخافة الله ، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له ، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم ، وتبرأ منهم عند ذلك ... (وهذه الآثار أخرجها ابن جرير الطبرى) .

ونحن – على منهجنا فى هذه الظلال – لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل م يرد به نص قرآنى أو حديث نبوى صحيح متواتر ، فهى من أمور الاعتقاد التى لا يلتزم فيها إلّا بنص هذه درجته ، ولكننا فى الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض ..

وفى هذا الحادث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم على الخروج بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم ، وأنه بعد ذلك – لما تراءى الجمعان أى رأى أحدهما الآخر – ﴿ **نكص على عقبيه وقال : إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب** ﴾ .. فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم ، ولم يوف بعهده معهم ..

ولكننا لا نعلم الكيفية التى زين لهم بها أعمالهم ، والتى قال لهم بها : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، والتى نكص بها كذلك وقال ماقاله بعد ذلك ..

الكيفية فقط هى التى لا نجزم بها ، ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء فى أمره إلّا فى حدود النص المسلم ، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث ...

الشـــيطان مصـــدر كـــل شـــــر

قال تعالى :

﴿إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين * قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ [يوسف : ٤ – ٥] .

أدرك يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام ، لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك ، ولا تظهر بوادره إلّا بعد حلقتين منها ، أما تمامه فلا يظهر إلّا فى نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب ، ولهذا نصحه بألّا يقص رؤياه على إخوته ، خشية أنْ يستشعروا ماوراءها لأخيهم الصغير – غير الشقيق – فيجد الشيطان من هذا ثغرة فى نفوسهم ، فتمتلىء نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمراً يسوءه : ﴿قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ ..

ثم علّل هذا بقوله : ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ ...

ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ، ويزين لهم الخطيئة والشر .

وقال تعالى :

﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف : ١٠٠] .

يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها : ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ ...

ذات التعبير الذى قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه فى مطلع القصة : ﴿إن ربك عليم حكيم﴾ .. ليتوافق البدء والختام حتى فى العبارات .

دعـــــوة الشـــــيطان

قال تعالى :

﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص * وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لى عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ماأنا بمصرخكم وماأنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ [إبراهيم : ٢١ – ٢٢] .

لقد برزوا جميعاً لله .. الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين ، ومعهم الشيطان .. ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات .. برزوا جميعاً مكشوفين ، وهم مكشوفون لله دائماً ، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق ....

لقد قضى الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار .. وهنا نرى على المسرح عجبا ، نرى الشيطان .. هاتف الغواية ، وحادى الغواة .. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أو مسوح الشيطان ! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب :

﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لى عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ماأنا بمصرخكم وماأنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ ...

الله .. الله .. أما إن الشيطان حقاً لشيطان .. وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين فى هذا الحوار ..

إنه الشيطان الذى وسوس فى الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم

عن استماع الدعوة .. هو الذى يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه – وقد قضى الأمر – هو الذى يقول الآن ، وبعد فوات الأوان :
﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ !

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا مابينهم وبين الشيطان من عداء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله : **﴿وماكان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى﴾ !**

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم ، يؤنبهم على أن أطاعوه !: **﴿فلا تلومونى ولوموا أنفسكم﴾ !**

ثم يخلى بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذى وعدهم من قبل ومناهم ، ووسوس لهم أن لا غالب لهم ، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ :
﴿ماأنا بمصرخكم وماأنتم بمصرخى﴾ .. ومابيننا من صلة ولا ولاء !

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك : **﴿إنى كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ !**

ثم ينهى خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه : **﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ !**

فيا للشيطان ! ويالهم من وليهم الذى هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه !...

الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم

قال تعالى :

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ [النحل : ٩٨ – ١٠٠] .

والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذى يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذى يمثله الشيطان .

فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .. **﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾** فالذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم ، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه ، وينقادوا إليه ، وقد يخطئون ، لكنهم لا يستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب .. **﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾** أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم ، ومنهم من يشرك به ، فقد عرفت عبادة الشيطان وعبادة إله الشر عند بعض الأقوام ، على أن اتباعهم للشيطان نوع من الشرك بالولاء والاتباع .

وقال تعالى :

﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ [المؤمنون : ٩٧ – ٩٨] .

يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله بأن يتوجه إلى ربه مستعيذاً به أن يجعله من هؤلاء القوم إن كان قد قدر له أن يرى تحقيق ماوعدهم به من العذاب ، وأن يستعيذ به كذلك من الشياطين ، فلا تثور نفسه ، ولا يضيق صدره بما يقولون ...

ورسول الله ﷺ فى منجاة من أن يجعله الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب

الأليم ، ويتحقق مايوعدون ، ولكن هذا الدعاء زيادة فى التوقى ، وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله ، وأن يظلوا أبداً أيقاظاً ، وأن يلوذوا دائماً بحماه ..

واستعاذة الرسول ﷺ من همزات الشياطين ودفعاتهم – وهو معصوم منها – زيادة كذلك فى التوقى ، وزيادة فى الالتجاء إلى الله ، وتعليم لأمته وهو قدوتها وأسوتها ، أن يتحصنوا بالله من همزات الشياطين فى كل حين ، بل إن الرسول ليوجه إلى الاستعاذة بالله من مجرد قرب الشياطين ، لا من همزاتهم ودفعاتهم ...

إخـــــوان الشـــــياطين

قال تعالى :

﴿**وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً**﴾ [الإسراء : ٢٦ - ٢٧] .

والقرآن يجعل لذى القربى والمسكين وابن السبيل حقاً فى الأعناق يوفى بالإنفاق ، فليس هو تفضلًا من أحد على أحد ، إنما هو الحق الذى فرضه الله ، ووصله بعبادته وتوحيده ، الحق الذى يؤديه المكلف فيبرىء ذمته ، ويصل المودة بينه وبين من يعطيه ، وإن هو إلا مؤد ما عليه الله .

وينهى القرآن عن التبذير ، والتبذير - كما يفسره ابن مسعود وابن عباس - الإنفاق فى غير حق ، وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مُدّاً فى غير حق كان مبذراً .

فليست هى الكثرة والقلة فى الإنفاق ، إنما هو موضع الإنفاق ، ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين ، لأنهم ينفقون فى الباطل ، وينفقون فى الشر ، وينفقون فى المعصية ، فهم رفقاء الشياطين وصحابهم ﴿**وكان الشيطان لربه كفوراً**﴾ لا يؤدى حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقها أن ينفقوها فى الطاعات والحقوق ، غير متجاوزين ولا مبدرين .

فإذا لم يجد إنسان مايؤدى به حق ذوى القربى والمساكين وابن السبيل واستحيا أن يواجههم ، وتوجه إلى الله يرجو أن يرزقه ويرزقهم ، فليعدهم إلى ميسرة ، وليقل لهم قولًا ليناً ، فلا يضيق بهم صدره ، ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق فى سكوته ، ففى القول الميسور عوض وأمل وتجمل ...

نـــزغ الشـــيطان

قال تعالى :

﴿وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ [الإسراء : ٥٣] .

﴿وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن﴾ على وجه الإطلاق وفى كل مجال ، فيختاروا أحسن مايقال ليقولوه .. بذلك يتقون أن يفسد الشيطان مابينهم من مودة ، فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت ، وبالرد السيىء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء ، والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، تندى جفافها ، وتجمعها على الود الكريم . ﴿إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ ..

يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه ، فيغرى بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة آمناً من نزغاته ونفثاته .

وقال تعالى :

﴿وإمـــا ينزغـــنك من الشيطـــان نزغ فاستعـــذ بالله إنـــه هو السميـــع العليم﴾ .. [فصلت : ٣٦] .

فالغضب قد ينزغ ، وقد يلقى فى الروع قلة الصبر على الإساءة ، أو ضيق الصدر عن السماحة ، فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية ، تدفع محاولاته ، لاستغلال الغضب ، والنفاذ من ثغرته .

إن خالق هذا القلب البشرى ، الذى يعرف مداخله ومساربه ، ويعرف طاقته واستعداده ، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه ، يحوط قلب الداعية إلى الله من نزغات الغضب ، أو نزغات الشيطان ، مما يلقاه فى طريقه مما يثير غضب الحليم .

النســــيان مــن الشـــــيطان

قال تعالى :

﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ [يوسف : ٤٢] .

وقال تعالى :

﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وماأنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً ﴾ [الكهف : ٦٣] .

وقال تعالى :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

طـــــريق الشـــــيطان

قال تعالى :

﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً * ياأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً * ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * ياأبت إنى أخـــاف أن يمسك عذاب من الـــــرحمن فتكــــون للشيطـــــان ولياً﴾ [مريم : ٤١ — ٤٥] ...

بهذا اللطف فى الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه ، يحاول أن يهديه إلى الخير الذى هداه الله إليه ، وعلمه إياه ، وهو يتحبب إليه فيخاطبه : **﴿ياأبت﴾** ويسأله : **﴿لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً﴾** ؟ والأصل فى العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى ، وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسنى ، فكيف يتوجه بها إذن إلى ماهو دون الإنسان ، بل إلى ماهو فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعاً ، إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام .

فليست هناك غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده ، إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى ، فإنما يتبع ذلك المصـدر ، ويسير فى الطريق إلى الهدى .

وبعد هذا الكشف عما فى عبادة الأصنام من نكارة ، وبيان المصدر الذى يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه فى دعوة أبيه .. يبين له أن طريقه هو طريق الشيطان ، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمن ، فهو يخشى أن يغضب الله عليه فيقضى عليه أن يكون من أتباع الشيطان .

﴿ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾ ...

والشيطان هو الذى يغرى بعبادة الأصنام من دون الله ، فالذى يعبدها كأنما يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمن ، وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابعاً ، فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة ، وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة .. نقمة تقوده إلى عذاب أشد وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب .

الذيـن يحشـــرون مــع الشـــياطين

قال تعالى :

﴿ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حياً * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً * فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ [مريم : ٦٦ – ٦٨] ...

يبدأ المشهد بذكر مايقوله الإنسان عن البعث ، ذلك أن هذه المقولة قالتها صنوف كثيرة من البشر فى عصور مختلفة ، فكأنما هى شبهة الإنسان واعتراضه المتكرر فى جميع الأجيال ...

وهو اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى ، فأين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر ..

ثم يعقب على هذا الإنكار والاستنكار بقسم تهديدى ، يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله ، أنهم سيحشرون بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه ، ولن يكونوا وحدهم ، فلنحشرنهم والشياطين ، فهم والشياطين سواء ، والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود ...

إرســـال الشـــياطين عــلى الكـــافرين

قال تعالى :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً * ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ [مريم : ٨١ – ٨٣] .

فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله يتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة ، والغلب والنصرة ، وكان فيهم من يعبد الملائكة ومن يعبد الجن ويستنصرونهم ويتقوّون بهم .. كلا ! فسيكفر الملائكة والجن بعبادتهم ، وينكرونها عليهم ، ويبرأون إلى الله منهم ، ويكونون عليهم ضداً ، بالتبرؤ منهم والشهادة عليهم .

وإن الشياطين ليهيجونهم إلى المعاصى ، فهم مسلطون عليهم ، مأذون لهم فى إغوائهم منذ أن طلب إبليس إطلاق يده فيهم ...

أتبـــاع الشـــيطان

قال تعالى :

﴿ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ [الحج : ٣ – ٤] .

والجدال فى الله ، سواء فى وجوده تعالى ، أو فى وحدانيته ، أو فى قدرته ، أو فى علمه ، أو فى صفة من صفاته .. الجدال فى شيء من هذا فى ظل ذلك الهول الذى ينتظر الناس جميعاً ، والذى لا نجاة منه إلّا بتقوى الله وبرضاه .. ذلك الجدال يبدو عجيباً من ذى عقل وقلب ، لا يتقى شر ذلك الهول المزلزل المجتاح .

ويا ليته كان جدالًا عن علم ومعرفة ويقين ، ولكنه جدال بغير علم ، جدال التطاول المجرد من الدليل ، جدال الضلال الناشيء من اتباع الشيطان ، فهذا الصنف من الناس يجادل فى الله بالهوى : **﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾** عات مخالف للحق متبجح **﴿كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾** .. فهو حتم مقدور أن يضل تابعه عن الهدى والصواب ، وأن يقوده إلى عذاب السعير .. ويتهكم التعبير فيسمى قيادته أتباعه إلى عذاب السعير هداية ! **﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾** .. فيالها من هداية هى الضلال المهلك المبيد !

إلقـــاء الشـــيطان فى أمـــانى الرســـول

قال تعالى :

﴿وماأرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبى إلّا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أُمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل مايلقى الشيطان فتنةً للذيـــن فى قلـــوبهم مرض والقاسيـــة قلوبُهـــم وإن الظـــالمين لفـــى شقـــاق بعيد﴾ [الحج : ٥٢ - ٥٣] .

الله الذى يحفظ دعوتـه من تكـذيب المكـذبين ، وتعطيـل المعـوقين ، ومعاجـزة المعاجزين .. يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية ، وهم معصومون من الشيطان ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانىّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها ، فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيهم هذه فيحول الدعوة عن أصولها وعن موازينها .. فيبطل الله كيد الشيطان ، ويصون دعوته ، ويبين للرسل أصولها وموازينها ، فيحكم آياته ، ويزيل كل شبهة فى قيم الدعوة ووسائلها ...

ولقد رويت فى سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة ذكرها كثير من المفسرين ، قال ابن كثير فى تفسيره : ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والله أعلم .

وقد اشتهر بحديث الغرانيق .. وهو من ناحية السند واهى الأصل ، قال علماء الحديث : إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وقال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره ، وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلًا من أصول العقيدة وهو عصمة النبى ﷺ من أن يدس عليه الشيطان شيئاً فى تبليغ رسالته .

وقد أولع المستشرقون والطاعنون فى هذا الدين بذلك الحديث ، وأذاعوا به ، وأثاروا

حوله عجاجة من القول ، والأمر فى هذا كله لا يثبت للمناقشة ، بل لا يصح أن يكون موضوعاً للمناقشة .

وهناك من النص ذاته مايستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئاً كهذا ، وأن يكون مدلوله حادثاً مفرداً وقع للرسول ﷺ فالنص يقرر أن هذه القاعدة عامة فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم : **﴿وماأرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلّا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾** .. فلابد أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة فى الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً ، بوصفهم من البشر ، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

وهذا مانحاول بيانه بعون الله ، والله أعلم بمراده ، إنما نحن نفسر كلامه بقدر إدراكنا البشرى ..

إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس ، يكون أحب شىء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذى جاءوهم به من عند الله فيتبعوه .. ولكن العقبات فى طريق الدعوات كثيرة ، والرسل بشر محدودو الأجل ، وهم يحسون هذا ويعلمونه ، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق .. يودون مثلًا لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى ، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة ! ويودون مثلًا لو جاروهم فى شىء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة ، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التى تطرد هذه الرغبات المألوفة !

ويودون .. ويودون .. من مثل هذه الأمانى والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها .. ذلك على حين يريد الله أن تمضى الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها الدقيقة ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فالكسب الحقيقى للدعوة فى التقدير الإلهى الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم .. هو أن تمضى على تلك الأصول وفق تلك الموازين ، ولو خسرت الأشخاص فى أول الطريق ، فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثنى هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة فى نهاية

المطاف ، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش ، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء ...

ويجد الشيطان فى تلك الرغبات البشرية ، وفى بعض مايترجم عنها من تصرفات أو كلمات ، فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن قواعدها ، وإلقاء الشبهات حولها فى النفوس .. ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات ، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل ، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ فى اجتهادهم للدعوة ، كما حدث فى بعض تصرفات الرسول ﷺ وفى بعض اتجاهاته ، مما بين الله فيه بياناً فى القرآن ..

بذلك يبطل الله كيد الشيطان ، ويحكم الله آياته ، فلا تبقى هنالك شبهة فى الوجه الصواب :....

﴿**والله عليم حكيم**﴾ .. فأما الذين فى قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف ، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين ، فيجدون فى مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق : ﴿**وإن الظالمين لفى شقاق بعيد**﴾ .. وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل : ﴿**وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم**﴾ ..

وفى حياة النبى ﷺ وفى تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا ، تغنينا عن تأويل الكلام الذى أشار إليه الإمام ابن جرير رحمه الله .

نجد من ذلك مثالًا فى قصة ابن أم مكتوم رضى الله عنه الأعمى الفقير الذى جاء إلى رسول الله ﷺ يقول : يارسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، ويكرر هذا القول والرسول ﷺ مشغول بأمر الوليد بن المغيرة يود لو يهديه إلى الإسلام ومعه صناديد قريش ، وابن أم مكتوم لا يعلم أن رسول الله ﷺ مشغول بهذا الأمر ، حتى كره رسول الله ﷺ إلحاحه فعبس وأعرض عنه ، فأنزل الله فى هذا قرآناً يعاتب فيه الرسول عتاباً شديداً :

﴿**عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * ومايدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وماعليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى * كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره ....**﴾ ..

وبهذا رد الله للدعوة موازينها الدقيقة وقيمها الصحيحة ، وصحح تصرف رسول الله ﷺ الذى دفعته إليه رغبته فى هداية صناديد قريش ، طمعاً فى إسلام من وراءهم وهم كثيرون . فبين الله له : أن استقامة الدعوة على أصولها الدقيقة أهم من إسلام أولئك الصناديد ، وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة ، وأحكم الله آياته ، واطمأنت إلى هذا البيان قلوب المؤمنين .

ولقد كان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرم ابن أم مكتوم ، ويقول إذا رآه : « مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى » ويقول له : « هل لك من حاجة » واستخلفه على المدينة مرتين .

كذلك وقع مارواه مسلم فى « صحيحه » قال : عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبى ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما . فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه**﴾ ..

وهكذا رد الله للدعوة قيمها المجردة ، وموازينها الدقيقة ، ورد كيد الشيطان فيما أراد أن يدخل من تلك الثغرة ، ثغرة الرغبة البشرية فى استمالة كبراء قريش بإجابة رغبتهم فى أن لا يحضر هؤلاء الفقراء مجلسهم مع رسول الله ﷺ ، وقيم الدعوة أهم من أولئك الكبراء ، ومايتبع إسلامهم من إسلام الألوف معهم وتقوية الدعوة فى نشأتها بهم كما كان يتمنى رسول الله ﷺ والله أعلم بمصدر القوة الحقيقية ، وهو الاستقامة التى لا ترعى هوى شخصياً ولا عرفاً جارياً !

ولعله مما يلحق بالمثلين المتقدمين ماحدث فى أمر زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ فقد زوجها من زيد بن حارثة وكان قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد . فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة فقال تعالى : ﴿**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله**﴾ وقال تعالى : ﴿**وما جعل أدعياءكم أبناءكم**﴾ .. وكان زيد أحب الناس إلى رسول الله ﷺ فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش رضى الله عنهما فلم تستقم بينهما الحياة .. وكانوا فى الجاهلية يكرهون أن يتزوج المتبنى مطلقة متبناه ، فأراد الله

سبحانه إبطال هذه العادة ، كما أبطل نسبة الولد إلى غير أبيه ، فأخبر رسول الله ﷺ أنه سيزوجه من زينب بعد أن يطلقها زيد لتكون هذه السنة مبطلة لتلك العادة ، ولكن النبى ﷺ أخفى فى نفسه ماأخبره به الله ، وكان كلما شكا إليه زيد تعذر الحياة مع زينب قال له : ﴿**أمسك عليك زوجك**﴾ .. مراعياً فى هذا كراهية القوم لزواجه منها حين يطلقها زيد ، وظل يخفى ماقدر الله إظهاره حتى طلقها زيد .. فأنزل الله فى هذا قرآناً ، يكشف عما جال فى خاطر الرسول ﷺ ويقرر القواعد التى أراد الله أن يقوم تشريعه فى هذه المسألة عليها : ﴿**وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرأ زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرأ وكان أمر الله مفعولًا**﴾ ...

ولقد صدقت عائشة رضى الله عنها وهى تقول : لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم : ﴿**وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ ..

وهكذا أنفذ الله شريعته وأحكمها ، وكشف ماخالج خاطر رسول الله ﷺ من كراهية القوم لزواجه من مطلقة دعيه ، ولم يمكن للشيطان أن يدخل من هذه الثغرة ، وترك الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم يتخذون من هذه الحادثة ، مادة للشقاق والجدال ماتزال !!!

هذا هو مانطمئن إليه فى تفسير تلك الآيات ، والله الهادى إلى الصواب .

ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوات بعد الرسل والرغبة الملحة فى انتشار الدعوات وانتصارها .. تدفعهم إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء فى أول الأمر عن شيء من مقتضيات الدعوة يحسبونه هم ليس أصيلًا فيها ، ومجاراتهم فى بعض أمرهم كى لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها !

ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا مع منهج الدعوة المستقيم ، وذلك حرصاً على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها ،

واجتهاداً فى تحقيق مصلحة الدعوة .ومصلحة الدعوة الحقيقية فى استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير ، أما النتائج فهى غيب لا يعلمه إلّا الله ، فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج إنما يجب أن يمضوا على نهج الدعوة الواضح الصريح الدقيق ، وأن يدعوا نتائج هذه الاستقامة لله ، ولن تكون إلّا خيراً فى نهاية المطاف .

وهاهو ذا القرآن الكريم ينبههم إلى أن الشيطان يتربص بأمانيهم تلك لينفذ منها إلى صميم الدعوة ، وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم ، فغير المعصومين فى حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية ، والتحرج البالغ ، خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة فى نصرة الدعوة والحرص على مايسمونه مصلحة الدعوة .. إن كلمة « مصلحة الدعوة » يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ، لأنها مزلة ، ومدخل للشيطان يأتيهم منه ، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص ! ولقد تتحول « مصلحة الدعوة » إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل !.. إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج دون التفات إلى مايعقبه هذا التحرى من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطراً على الدعوة وأصحابها ! الخطر الوحيد الذى يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب ، سواء كان هذا الانحراف كثيراً أو قليلًا ، والله (١) أعرف منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين ، إنما هم مكلفون بأمر واحد ، ألّا ينحرفوا عن المنهج ، وألّا يحيدوا عن الطريق ..

---

(١) – والله أعلم منهم بالمصلحة ، وهو الصواب .

الشـــيطان يخـــذل أوليـــاءه

قال تعالى :

﴿**ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلًا * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلًا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولًا**﴾ [الفرقان : ٢٧ – ٢٩] ..

فلاناً بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ﷺ ويضل عن ذكر الله سبحانه وتعالى ﴿**لقد أضلنى عن الذكر بعد أن جاءنى**﴾ .. لقد كان شيطاناً يضل ، أو كان عوناً للشيطان ﴿**وكان الشيطان للإنسان خذولًا**﴾ يقوده إلى مواقف الخذلان ، ويخذله عند الجد ، وفى مواقف الهول والكرب ...

تذكر بعض الروايات فى سبب نزول هذه الآيات ، أن عقبة بن أبى معيط كان يكثر من مجالسة النبى ﷺ فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل ، وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه ، وقال له : صبأت . فقال : لا والله ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له ، فقال : لا أرضى منك إلّا أن تأتيه ، فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه ، فوجده ساجداً فى دار الندوة ففعل ذلك ، فقال له النبى ﷺ : « **لا ألقاك خارج مكة إلّا علوت رأسك بالسيف** » فأسر يوم بدر فأمر علياً فقتله .

وماتنزلت به الشياطين

قال تعالى :

﴿وماتنزلت به الشياطين * وماينبغي لهم ومايستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون﴾ .. [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣] .

إنه ينفى دعواهم أنه من وحى الشياطين على طريقة الكهان ، الذين كانوا يزعمون أن الشياطين تأتيهم بخبر الغيب ، وبالسمع الذى يتكهنون فيه بالأخبار .

ومايليق هذا القرآن بالشياطين ، وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان ، والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد والكفر .

وماهم بمستطيعين أن يأتوا به ، فهم معزولون عن سماع الوحى به من الله ، إنما يتنزل به الروح الأمين ، بإذن من رب العالمين ، وليس هذا بميسور للشياطين .

والجولة الأخيرة فى السورة حول القرآن أيضاً ، ففى المرة الأولى أكد أنه تنزيل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، وفى المرة الثانية نفى أن تتنزل به الشياطين . أما فى هذه المرة فيقرر أن الشياطين لا تتنزل على مثل محمد ﷺ فى أمانته وصدقه وصلاح منهجه ، إنما تتنزل على كل كذاب آثم ضال من الكهان الذين يتلقون إيحاءات الشياطين ويذيعونها مع التضخيم والتهويل ..

وكان فى العرب كهان يزعمون أن الجن تنقل إليهم الأخبار ، وكان الناس يلجأون إليهم ويركنون إلى نبوءاتهم ، وأكثرهم كاذبون ، والتصديق بهم جرى وراء الأوهام والأكاذيب ، وهم على أية حال لا يدعون إلى هدى ، ولا يأمرون بتقوى ، ولا يقودون إلى إيمان ، وماهكذا كان رسول الله ﷺ وهو يدعو الناس بهذا القرآن إلى منهج قويم .

دعـــــوة الشـــــيطان

قال تعالى :

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ [لقمان : ٢١] .

فهذا هو سندهم الوحيد ، وهذا هو دليلهم العجيب !! التقليد الجامد المتحجر الذى لا يقوم على علم ولا يعتمد على تفكير ، التقليد الذى يريد الإسلام أن يحررهم منه ، وأن يطلق عقولهم لتتدبر ، ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور ، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضى المنحرف ، ويتمسكوا بالأغلال والقيود .

إن الإسلام حرية فى الضمير ، وحركة فى الشعور ، وتطلع إلى النور ، ومنهج جديد للحياة طليق من إسار التقليد والجمود ، ومع ذلك كان يأباه ذلك الفريق من الناس ، ويدفعون عن أرواحهم هداه ، ويجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .. ومن ثم يسخر منهم ويتهكم عليهم ، ويشير من طرف خفى إلى عاقبة هذا الموقف المريب : ﴿أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ ؟...

فهذا الموقف إنما هو دعوة من الشيطان لهم ، لينتهى بهم إلى عذاب السعير ، فهل هم مصرون عليه ولو قادهم إلى ذلك المصير ؟.. لمسة موقظة ومؤثر مخيف ، بعد ذلك الدليل الكونى العظيم اللطيف .

إن الشـيطان لكـم عـدو فاتخـذوه عـدواً

قال تعالى :

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ [فاطر : ٦] .

الشيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم فاتخذوه عدواً لا تركنوا إليه ، ولا تتخذوه ناصحاً لكم ، ولا تتبعوا خطاه ، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل ، وهو لايدعوكم إلى خير ، ولا ينتهى بكم إلى نجاة ، **﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾** ! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعى إلى عذاب السعير ؟

إنها لمسة وجدانية صادقة ، فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات ، يتحفز لدفع الغواية والإغراء ، ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه ، ويتوجس من كل هاجسة ، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذى أقامه له ليتبين ، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم !

وهذه هى الحالة الوجدانية التى يريد القرآن أن ينشئها فى الضمير ، حالة التوفز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالغواية ، كما يتوفز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية ! حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه ، وضد هواتفه المستسرة فى النفس ، وأسبابه الظاهرة للعيان ، حالة الاستعداد الدائم للمعركة التى لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها فى هذه الأرض أبداً .

وقال تعالى :

﴿ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [يس : ٦٠] .

ونداؤهم هنا : يابنى آدم .. فيه من التبكيت مافيه ، وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنة ثم هم يعبدونه ، وهو لهم عدو مبين !!!

وقال تعالى :

﴿ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [الزخرف : ٦٢] .

كانوا يشكون فى الساعة ، فالقرآن يدعوهم إلى اليقين ، وكانوا يشردون عن الهدى ، والقرآن يدعوهم على لسان الرسول ﷺ إلى اتباعه فإنه يسير بهم فى الطريق المستقيم ، القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه .

ويبين لهم أن انحرافهم وشرودهم أثر من اتباع الشيطان ، والرسول أولى أن يتبعوه :
﴿ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ ..

والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم ، ومنذ المعركة الأولى فى الجنة ، وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدواً يقف له بالمرصاد ، عن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ، ثم لا يأخذ حذره ، ثم يزيد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح !

وقد أقام الإسلام الإنسان فى هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض ، ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر مالا يخطر على قلب بشر ، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر مالا يخطر كذلك على قلب بشر ، وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة ، التى تجعل من الإنسان إنساناً ، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع ! والتى تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان ، فينتصر على الشر والخبث والرجس ، ويثبت فى الأرض قوائم الخير والنصح والطهر .

وقال تعالى :

﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين﴾ [الحشر : ١٦] .

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بنى الإنسان ، تتفقان مع طبيعته ومهمته ، فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان ، وحاله هو هذا الحال !

الذيـــن ســـول هـــم الشـــيطان

قال تعالى :

﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم**﴾ [محمد : ٢٥] .

والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ماتبين لهم ، فى صورة حركة حسية ، حركة الارتداد على الأدبار ، ويكشف ماوراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه ، فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان ! وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون ! ثم يذكر السبب الذى جعل للشيطان عليهم هذا السلطان ، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ماعرفوا الهدى وتبينوه : ﴿**ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر**﴾ ..

النجــوى مــن الشــيطان

قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون * إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلّا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [المجادلة : ٩ - ١٠]

يبدو أن بعض المسلمين ممن لم تطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامى ، كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور ، ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيداً عن قيادتهم ، الأمر الذى لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية ، وروح التنظيم الإسلامى ، التى تقتضى عرض كل رأى وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء ، وعدم التجمعات الجانبية فى الجماعة ، كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ماقد يؤدى إلى البلبلة ، ومايؤذى الجماعة المسلمة ولو لم يكن قصد الإيذاء قائماً فى نفوس المتناجين ولكن مجرد إثارتهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم ، قد يؤدى إلى الإيذاء ، وإلى عدم الطاعة .

وهنا يناديهم الله بصفتهم التى تربطهم به ، وتجعل للنداء وقعه وتأثيره ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ .. لينهاهم عن التناجى إذا تناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، ويبين لهم مايليق بهم من الموضوعات التى يتناجى بها المؤمنون : ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ .. لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما ، والبر : الخير عامة ، والتقوى : اليقظة والرقابة لله سبحانه ، وهى لا توحى إلّا بالخير ، ويذكرهم بمخافة الله الذى يحشرون إليه ، فيحاسبهم بما كسبوا ، وهو شاهده ومحصيه ، مهما ستروه وأخفوه .

قال الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها**

لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» (١)

ثم ينفرهم من التناجى والمسارة والتدسّس بالقول فى خفية عن الجماعة المسلمة ، التى هم منها ، ومصلحتهم مصلحتها ، وينبغى ألا يشعروا بالانفصال عنها فى شأن من الشئون . فيقول لهم : إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانعزال بالحديث تبث فى قلوبهم الحزن والتوجس ، وتخلق جواً من عدم الثقة ، وأن الشيطان يغرى المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوساوس والهموم ، ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم مايريد : **﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلّا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** ..

فالمؤمنون لا يتوكلون إلّا على الله ، فليس وراء ذلك توكل ، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون !

وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهى عن التناجى فى الحالات التى توقع الريبة وترعزع الثقة وتبعث التوجس .

جاء فى الصحيحين من حديث الأعمش بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»** .

وهو أدب رفيع ، كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك ، فأما حيث تكون هناك مصلحة فى كتمان سر ، أو ستر عورة ، فى شأن عام أو خاص ، فلا مانع من التشاور فى سر وتكتم ، وهذا يكون عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة ، ولا يجوز أن يكون تجمعاً جانبياً بعيداً عن علم الجماعة ، فهذا هو الذى نهى عنه القرآن ونهى عنه الرسول ،

---

(١) – أخرجه البخارى ٣/١٦٨ ، وأحمد ٢/٧٤ ، و «مشكاة المصابيح» (٥٥٥١) والبغوى ١/٣١٢ وابن كثير ٤/٢٧٤ ، و «الدر المنثور» ٣/٣٢٥ ، و «الفتح» ٥/٩٦ ، و «الإتحافات» (١٣٧) ، و «الإتحاف» ١٠/٤٦٩ ، و «الكنز» (٣٩٠١٧) ، و «جمع الجوامع» (٥٢٥٥) ، و «الأسماء والصفات» (٥٦) .

وهذا هو الذى يفتت الجماعة أو يوقع فى صفوفها الشك وفقدان الثقة ، وهذا هو الذى يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، ووعد الله قاطع فى أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة مايريد فى الجماعة المؤمنة ، لأن الله حارسها وكالئها ، وهو شاهد حاضر فى كل مناجاة ، وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر ، ولن يضر الشيطان المؤمنين .. **﴿إلّا بإذن الله﴾** .. وهو استثناء تحفظى لتقرير طلاقة المشيئة فى كل موطن من مواطن الوعد والجزم ، لتبقى المشيئة حرة وراء الوعد والجزم ..

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ .. فهو الحارس الحامى ، وهو القوى العزيز ، وهو العليم الخبير ، وهو الشاهد الحاضر الذى لا يغيب ، ولا يكون فى الكون إلّا مايريد ، وقد وعد بحراسة المؤمنين ، فأى طمأنينة بعد هذا وأى يقين ؟

حـــــزب الشـــــيطان

قال تعالى :

﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ [المجادلة : ١٩] .

القلب الذى ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر ، أولئك حزب الشيطان الخالص للشيطان الذى يقف تحت لوائه ، ويعمل باسمه ، وينفذ غاياته ، وهو الشر الخالص الذى ينتهى إلى الخسران الخالص : **﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾** ...

وماهو بقول شيطان رجيم

قال تعالى :

﴿وماصاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وماهو على الغيب بضنين * وماهو بقول شيطانٍ رجيم * فأين تذهبون﴾ [التكوير : ٢٢ - ٢٦] .

لقد قالوا عن النبى الكريم الذى يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون رجاحة عقله ، وصدقه وأمانته وتثبته ، قالوا عنه : إنه مجنون ، وإن شيطاناً يتنزل عليه بما يقول ، قال بعضهم هذا كيداً له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار ، وقاله بعضهم عجباً ودهشة من هذا القول الذى لا يقوله البشر فيما يألفون ويعهدون ، وتمشياً مع ظنهم أن لكل شاعر شيطاناً يأتيه بالقول الفريد ، وأن لكل كاهن شيطاناً يأتيه بالغيب البعيد ، وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانه بالقول الغريب ! وتركوا التعليل الوحيد الصادق ، وهو أنه وحى وتنزيل من رب العالمين .

فجاء القرآن يحدثهم فى هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع ، وحيوية مشاهده الجميلة ، ليوحى إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة ، التى أنشأت ذلك الجمال ، على غير مثال ، وليحدثهم بصفة الرسول الذى حمله ، والرسول الذى بلغه ، وهو صاحبهم الذى عرفوه ، غير مجنون ، والذى رأى الرسول الكريم جبريل حق الرؤية ، بالأفق المبين الواضح الذى تتم فيه الرؤية عن يقين ، وأنه ﷺ لمؤتمن على الغيب ، لا تظن به الظنون فى خبره الذى يرويه عنه ، فما عرفوا عنه إلّا الصدق واليقين .
﴿وماهو بقول شيطان رجيم﴾ فالشياطين لا توحى بهذا النهج القويم ، ويسألهم مستنكراً : ﴿فأين تذهبون﴾ ؟ أين تذهبون فى حكمكم وقولكم ؟ أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم !

القــــرين مــن الشـــــياطين

قال تعالى :

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين * ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون﴾ [الزخرف : ٣٦ - ٣٩] .

والعشى كلال البصر عن الرؤية ، وغالباً مايكون عند مواجهة الضوء الساطع الذى لا تملك العين أن تحدق فيه ، أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله ، وقد يكون ذلك لمرض خاص ، والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته فى الضمير..

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ ..

وقد قضت مشيئة الله فى خلقة الإنسان ذلك ، واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء ، وهذا الشرط وجوابه هنا فى الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التى تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاه الله فى علمه .

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون : ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾ ..

وهذا أسوأ مايصنعه قرين بقرين ، أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ، ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ، إنما يوهمه أنه سائر فى الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم بالمصير الأليم .

والتعبير بالفعل المضارع : «ليصدونهم» .. «ويحسبون» .. يصور العملية القائمة مستمرة معروضة للأنظار ، يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون : ﴿**حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين**﴾ .

وهكذا ننتقل فى ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة ، ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمى بالذين يعشون عن ذكر الرحمن إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار ، هنا يفيقون كما يفيق المخمور ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ، وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذى زين له الضلال ، وأوهمه أنه الهدى ! وقاده فى طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ! ينظر إليه فى حنق يقول : ﴿**ياليت بينى وبينك بعد المشرقين**﴾ ! ياليته لم يكن بيننا لقاء ، على هذا البعد السحيق !

ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله : ﴿**فبئس القرين**﴾ !

ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع : ﴿**ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون**﴾ ! فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون !

الشـــــياطين يعلمـــون النـــاس الســـــحر

قال تعالى :

﴿واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وماأنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلّا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ [البقرة : ١٠٢] .

لقد تركوا ماأنزل الله مصدقاً لما معهم ، وراحوا يتتبعون مايقصه الشياطين عن عهد سليمان ، ومايضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان ، إذ يقولون : إنه كان ساحراً ، وإنه سخر ماسخر عن طريق السحر الذى كان يعلمه ويستخدمه .

والقرآن ينفى عن سليمان عليه السلام أنه كان ساحراً فيقول : ﴿وماكفر سليمان﴾ ..

فكأنه يعد السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن سليمان عليه السلام ويثبته للشياطين : ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ ..

ثم ينفى أن السحر منزل من عند الله على الملكين : هاروت وماروت ، اللذين كان مقرهما بابل : ﴿وماأنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ ..

ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما ، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس ، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما ! فنفى القرآن هذه الفرية أيضاً ، فرية تنزيل السحر على الملكين .

ثم يبين الحقيقة ، وهى أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة ، وأنهما كانا يقولان لكل من يجىء إليهما ، طالباً منهما أن يعلماه السحر : ﴿ومايعلمان من

أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ ..

ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفراً ، ويذكر هذا على لسان الملكين : هاروت وماروت .

وقد كان بعض الناس يصر على تعلم السحر منهما ، على الرغم من تحذيره وتبصيره ، وعندئذ تحق الفتنة على بعض المفتونين : **﴿فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلّا بإذن الله﴾** ....

اســـتهواء الشـــياطين

قال تعالى :

﴿قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ [الأنعام : ٧١] .

إنه مشهد حى شاخص متحرك للضلالة والحيرة التى تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد ! ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيذهب فى التيه .. إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس : ﴿**الذى استهوته الشياطين فى الأرض**﴾ .. ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله وياليته يتبع هذا الاستهواء فى اتجاهه ، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد ولو فى طريق الضلال ! ولكن هناك من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعونه إلى الهدى ، وينادونه ائتنا .. وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء حيران لا يدرى أين يتجه ، ولا أى الفريقين يجيب !

إنه العذاب النفسى يرتسم ويتحرك ، حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير !

شـــــياطين الإنـــــس والجـــــن

قال تعالى :

﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون﴾ [الأنعام : ١١٢] .

.... كذلك .. كالذى قدرناه من أن أولئك المشركين الذين يعلقون إيمانهم بمجىء الخوارق ، ويعرضون عن دلائل الهدى وموحياته فى الكون والنفس ، لا يقع منهم الإيمان ولو جاءتهم كل آية ..

كذلك الذى قدرناه فى شأن هؤلاء ، قدرنا أن يكون لكل نبىعدوَ همْ شياطين الإنس والجن ، وقدرنا أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى ، وقدرنا أن تصغى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقترفوا مايقترفون من العداوة للرسل وللحق ، ومن الضلال والفساد فى الأرض ..

كل ذلك إنما جرى بقدر الله ، وفق مشيئته ، ولو شاء ربك مافعلوه ، ولمضت مشيئته بغير هذا كله ، ولجرى قدره بغير هذا الذى كان ، فليس شىء من هذا كله بالمصادفة ، وليس شىء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

فإذا تقرر أن هذا الذى يجرى فى الأرض من المعركة الناشبة التى لا تهدأ بين الرسل والحق الذى معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم .. إذا تقرر أن هذا الذى يجرى فى الأرض إنما يجرى بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله ، فإن المسلم ينبغى أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء مايجرى فى الأرض ، بعد أن يدرك طبيعة هذا الذى يجرى والقدرة التى وراءه ..

الشــــياطين يوحـــون إلـى أوليـــــائهم

قال تعالى :

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ [الأنعام : ١٢١] .

ينهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التى كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم ، أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ، أو من الميتة التى كانوا يجادلون المسلمين فى تحريمها ، يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون مما ذبحوا بأيديهم ، ولا يأكلون مما ذبح الله ؟ وهو تصور من تصورات الجاهلية التى لا حد لسخفها وتهافتها فى جميع الجاهليات ! وهذا ماكانت الشياطين – من الإنس والجن – توسوس به لأوليائها ليجادلوا المسلمين فيه من أمر هذه الذبائح مما تشير إليه الآيات ...

السـمـاء محفـوظة مـن الشـيـاطين

قال تعالى :

﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ [الحجر : ١٦-١٨] .

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكونى ، وعمق هذا الجمال فى تكوينه ، ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة : ﴿وزيناها للناظرين﴾ ..

ومع الزينة الحفظ والطهارة : ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ ..

لا ينالها ولا يدنسها ، ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته ، فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها ، وبالغاوين من أبناء آدم فيها ، أما السماء - وهى رمز للسمو والارتفاع - فهو مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها ، إلّا محاولة منه ترد كلما حاولها : ﴿إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ ..

وماالشيطان ؟ وكيف يحاول استراق السمع ؟ وأى شيء يسترق ؟.. كل هذا غيب من غيب الله ، لا سبيل لنا إليه إلّا من خلال النصوص ، ولا جدوى فى الخوض فيه ، لأنه لا يزيد شيئاً فى العقيدة ، ولا يثمر إلّا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه ، وبما يعطله عن عمله الحقيقى فى هذه الحياة ، ثم لا يضيف إليه إدراكاً جديداً لحقيقة جديدة .

فلنعلم أن لا سبيل فى السماء لشيطان ، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ ، وأن ماترمز إليه من سمو وعلو مصون لا يناله دنس ولا رجس ، ولا يخطر فيه شيطان ، وإلا طورد فطرد وحيل بينه وبين مايريد .

ولا ننسى جمال الحركة فى المشهد فى رسم البرج الثابت ، والشيطان الصاعد ، والشهاب المنقض ، فهى من بدائع التصوير فى هذا الكتاب الجميل ..

وقال تعالى :

﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون

إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصافات : ٦ – ١٠] .

كانوا يزعمون أن بين الله وبين الجنة نسباً ، وبعضهم كانوا يعبدون الشياطين على هذا الأساس ، وعلى أساس أن الشياطين يعرفون الغيب لاتصالهم بالملأ الأعلى ...

ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة .. ثم تقرر الآية أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى ، وأن منها شهباً ترجم بها الشياطين كى لا تدنو من الملأ الأعلى ..

فمن الكواكب رجوم تحفظ السماء من كل شيطان عات متمرد وتذوده عن الاستماع إلى مايدور فى الملأ الأعلى ، فإذا حاول التسمع تلقفته الرجوم من كل جانب ، فتدحره دحراً ، وله فى الآخرة عذاب موصول لا ينقطع ، ولقد يخطف الشيطان المارد خطفة سريعة مما يدور فى الملأ الأعلى ، فيتبعه شهاب يلاحقه فى ہبوطه فيصيبه ويحرقه حرقاً .

ونحن لا نعرف كيف يستمع الشيطان المارد ، ولا كيف يخطف الخطفة ، ولا كيف يرجم بالشهاب الثاقب ، لأن هذه كلها غيبيات تعجز طبيعتنا البشرية عن تصور كيفياتها ، ومجالنا فيها هو تصديق ماجاء من عند الله فيها ، وهل نعلم عن شيء فى هذا الكون إلّا القشور ؟

والمهم أن هذه الشياطين التى تمنع من الوصول إلى الملأ الأعلى ، ومن التسمع لما يدور فيه هى التى يدعى المدعون أن بينها وبين الله نسباً ، ولو كان شيء من هذا صحيحاً لتغير وجه المعاملة ، ولما كان مصير الأنسباء والأصهار بزعمهم هو المطاردة والرجم والحرق أبداً !

وقال تعالى :

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ [الملك : ٥] .

وماالسماء الدنيا ؟ لعلها هى الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن ، ولعل المصابيح المشار إليها هنا هى النجوم والكواكب الظاهرة للعين ، التى نراها حين ننظر إلى السماء ، فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر فى السماء ، وماكانوا يملكون إلّا

عيونهم ، وماتراه من أجرام مضيئة تزين السماء .

ويذكر النص القرآنى هنا أن هذه المصابيح التى زين الله السماء الدنيا بها هى كذلك ذات وظيفة أخرى : ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ ..

وقد جرينا فى هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشىء فى أمر الغيبيات التى يقص الله علينا طرفاً من خبرها وأن نقف عند حدود النص القرآنى لا نتعداه . وهو كاف بذاته لإثبات مايعرض له من أمور .

فنحن نؤمن أن هناك خلقاً اسمهم الشياطين ، وردت بعض صفاتهم فى القرآن ، وسبقت الإشارة إليها فى هذه الظلال ، ولا نزيد عليها شيئاً ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصابيح التى تزين السماء الدنيا رجوماً للشياطين ، فى صورة شهب كما جاء فى سورة أخرى : ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ .. ﴿إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ .. كيف ؟ من أى حجم ؟ فى أية صورة ؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئاً ، وليس لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه فى مثل هذا الشأن . فلنعلم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه . وهذا هو المقصود ، ولو علم الله أن هناك خيراً فى الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه ، فمالنا نحن نحاول مالم يعلم الله أن فيه خيراً ؟ فى مثل هذا الأمر ، أمر رجم الشياطين ؟

ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم : ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ ...

فالرجوم فى الدنيا وعذاب السعير فى الآخرة لأولئك الشياطين ، ولعل مناسبة ذكر هذا ، الذى أعده الله للشياطين فى الدنيا والآخرة هى ذكر السماء أولًا ، ثم مايجىء بعد من ذكر الذين كفروا ، والعلاقة بين الشياطين والذين كفروا علاقة ملحوظة ، فلما ذكر مصابيح السماء ذكر اتخاذها رجوماً للشياطين ، ولما ذكر ماأعد للشياطين من عذاب السعير ذكر بعده ماأعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين ...

رؤوس الشـــــياطين

قال تعالى :

﴿أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ [الصافات : ٦٢ – ٦٥] .

الناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون ! ولكنها مفزعة ولا شك ، ومجرد تصورها يثير الفزع والرعب ، فكيف إذا كانت طلعاً يأكلونه ويملأون منه البطون ؟

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظالمين ، فإذا شاكت حلوقهم وهى كرؤوس الشياطين – وحرقت بطونهم – وهى تنبت فى أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم ! وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء اللهيب ، فإنهم لشاربون عليها ماءً ساخناً مشوباً غير خالص ..

وبعد هذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم وياله من نزل ! وياله من معاد !

﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ ...

إطلاق لفظ الشيطان على بعض الناس

قال تعالى :

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ [البقرة : ١٤] .

بعض الناس يحسب اللؤم قوة ، والمكر السيىء براعة ، وهو فى حقيقته ضعف وخسة ، فالقوى ليس لئيماً ولا خبيثاً ، ولا خادعاً ولا متآمراً ولا غمازاً فى الخفاء لمازاً ، وهؤلاء المنافقون الذين كانوا يجبنون عن المواجهة ، ويتظاهرون بالإيمان عند لقاء المؤمنين ، ليتقوا الأذى ، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى .. هؤلاء كانوا إذا خلوا إلى شياطينهم – وهم غالباً – اليهود الذين كانوا يجدون فى هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامى وتفتيته ، كما أن هؤلاء كانوا يجدون فى اليهود سنداً وملاذاً .. هؤلاء المنافقون كانوا : ﴿إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ – أى بالمؤمنين – بما نظهره من الإيمان والتصديق !

ومايكاد القرآن يحكى فعلتهم هذه وقولتهم ، حتى يصب عليهم من التهديد مايهد الرواسى : ﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون﴾ ..

ومابأس من يستهزىء به جبار السماوات والأرض وماأشقاه !!

الفهرس

****

صدر حديثاً

الشيخ عبد الحميد كشك

أنت تسأل والشيخ يجيب

منهاج متكامل فيه كل ما يهم
المسلم في حياته وبعد مماته

مكتبة التراث الإسلامي
ت : ٣٩١١٣٩٧ - ٣٩٢٥٦٧٧ - فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

رقم الإيداع ٨١٣٥ لسنة ١٩٩٢
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 260 — 085 — 4

ت ٩٣٢٧٠٦

الاستشفاء

بالقرآن والدعاء

عكاشة عبد المنان الطيبى

القرآن هو الدواء من كل داء .

التحصن بالقرآن من الشيطان كيف ؟

التداوى بالقرآن والعسل فى القرآن .

ما يدعوا به المهموم والمكروب ؟

الحرز المنيع من الشيطان . ما هو ؟

علاج السحر بالقرآن . كيف ؟

العين . وعلاجها بالقرآن .

الآية التى يفر الشيطان عند سماعها .

الصرع وعلاجها بالقرآن .

الملدوغ وعلاجها من القرآن .

أذكار وأدعية مخصوصة تنجى من كل شيء .

مكتبة التراث الاسلامى

ت . ٣٩١١٣٩٧ - ٣٩٢٥٦٧٧ _ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦